

المرأة
في
ميادين الكفاح

تأليف :
فائزة عبد المجيد

ثريا

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
١٩٦٧

مذاهب وشخصيات



مقـــدمة المؤلفة :

فى تاريخ الأمم نماذج نسوية خالدة للقيادة والالهام ، وصـــفحات حية حافلة بعظمة التضحية للمثل الأعلى ، وتحرير الانســـان من الألم والظلم والاستعباد .

وليست هذه النماذج النسوية الخالدة التى أعرضها فى هذا الكتاب من شرقية وغربية ـ بترجمة لتلك الشخصيات ، قدر ما هى انطباعات خاصة من خلال دراستى لسيرهن المشرقة التى ما تزال تترامى وتتوهج عبر كل الميادين التى برز دورهن فيها ، وهن يتركن في أسفار التاريخ بصماتهن التى لا تمحى .

ولكن ، لم توقفت الأجيال الأخرى من النساء العربيات عن الوصول الى مراقى العظمة التى وصل اليها من سبقهن ؟

هل تغيرت الانســـانية ؟ أم أن المراة قد عزلت قسرا عن الحـــركة البشرية الكبرى ؟

كلا . فالانسانية لم تتغير . وانما الذى تغير ، هو خط السير للمراة حين عزلت بارادة الرجل عن تيـــارات العلم والحيــــاة ، تلك الحركة البشرية الكبرى التى راحت تمر بها ـ بتطوراتها العظيمة ـ وهى عاجزة عن اللحاق بها ، أن لم تكن فى شبه سبات كامل .

فهذه المراة العربية التى عزلت قهرا عن مدار الخدمات والاهتمامات العليا لأمتها ورانت عليهـــا ظلمات الجهـــل والجمود ، لم يعد لها ذلك الأيمان بنفسها أو قدرات أولئـــك النساء الخالدات اللواتى سبقنها ،

وينين حيـاتهن على أسس قوية من الـكفاح والتمسـك بالقيم ، وهن الخالقات للقادة والعظماء بما كن يغرسن فيهم من صفات البطولة وصدق الأيحاء ، بأن الانسان ، فى قدرته دون غيره ، أن يقرر مصـيره ويبنى مجده ، وانه ما خلق للهزيمة أو ليخذل نفسه ، بل لينتصر ويسود كما قالت : هند بنت عتبه أم الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، حين قيل لها أن ابنها معاوية سيسود قومه : « تكلته أمه ، أن لم يسد ، غير قومه !».

فى هذه النماذج النسوية ، نرى خلاف الفكرة السائدة فى الأذهان من ان الرجل ، هو الذى خلق وحدة لادارة الممالك وللسياسة والقيادة والحرب وبناء الحضارة . بل أن هناك من النساء من شاركته — حين فتح لهن المجـال — فى هـذه الحركة الانسانية الخلاقة المتطورة ومن القيادة الروحية ، حتى أسمى الغايات التى وصـل اليها الانسان فى مسيرته للحق والحرية والنضال فى سبيل القيم العليا .

ولقد كان للمراة — فى الشرق ، كما فى الغرب — مكانها المرموق فى هذه الحركة الخلاقة العظمى . ولم تتخلف المراة العربية عن احتلال مكانتها التاريخية فى تلك الحركة ، بل كانت قوة دافعة ملهمة ، وهى تعمل وتكافح لخلق الكمال فى أمتها ، تخلقه فى صورة رجال وابطال ، بل تسمو فى رسالتها ، حتى لتكون الهاما لصاحب الرسالة مع الهامه .

هذه خديجة بنت خويلد ، لم تكن فى حياة محمد « صلعم » الا المراة الملهمة التى تلاقت لديها المواهب والشجاعة والذكاء ، والايمان بصاحب الرسالة . ذلك الايمان الذى جعلت صاحبته من نفسها ، أمينة على أسراره ، مقوية لعزيمته ، وعونا له فى الشـدائد ، ومقاسـمة له فى الكفاح والاضطهاد المديد ، لم تنثن عنه أو تتخاذل ، حتى أصبح زعيما وقائدا ونبيا .

اما أسماء بنت أبى بكر ، فما تزال مواقفها منذ ان كانت الى جانب النبى ظهيرة له فى جهاده العظيم ، تصله بالمـاء والزاد عبر الصحارى المحرقة ليبلغ رسالة ربه ، وخلف ابيها الصديق فى معركته الظـافرة للوحدة العربية ، وفى دفعها بابنها عبد الله بن الزبير للموت فى سبيل المبـدأ — ما تزال فـكرة خالدة تجرى مع دم كل شـهيد عربى للحق والشرف .

كذلك كانت فلورنس نايتنجيل أو «حاملة المشعل» كمـا يسميها قومها الانجليز فقد كان لها بينهم من شـعور القداسة ، ما لجان دارك لدى الفرنسيين .

ولقد كانت فلورنس ، وهى تؤسس فن التمريض ، وتخوض ذلك الهول المرعب من العذاب والدماء فى حرب القوم ، من بطلات التاريخ ، حين لم يكن التمريض من المهن اللائقة لفتيات الأسر اذ ذاك ، ولا يمتهنه الا الرجال .

ولم تتخلف اليزابيث فراى ــ مصلحة السجون ــ عن السير فى هذا الطريق الانسانى النبيل . كمــا لم تكن حياة كلارا بارتون ، مؤسسة الصليب الأحمر الأمريكى ، الا شطرا من حياة أمتها القومية وفخارها .

كذلك نرى هاربيت بيتشر ســتو التى قدر لها ان تهز بقصتهــا الانسانية المثيرة « كوخ العم توم » الضمير الانسانى ، تلك القصة التى تعتبر مساهمة عظيمة للأدب فى حركة تحرير العبيد وهى تضرب ، فى كل سطر من سطورها ، فى أعمــاق الانسان ، ليغضب ويثور ضد الاضطهاد ، والرق البشرى .

وفى السياسة ومجابهة الطغاة ، تتلاقى المراة فى الثورة الفرنسية ــ فى مصيرها ــ مع الرجل ، حين تهتف مدام رولاند للحرية وهى على المقصلة : « أيتها الحرية ، كم من الجرائم ، ترتكب باسمك » !

كذلك ، لم تخش مدام كوندرسيه ــ احــدى زعيمــات الثورة الفرنسية ــ سطوة نابليون حين قال لها :

« مدام ، اننى لا أحب أن تتمحك المراة بالسياسة ! »

ولكنها لم تخش سطوته بل ردت عليه بشجاعة ومنطق :

« ولكن من الطبيعى فى بلد تجتز فيــه رؤوس النساء ، ان يـكون لها الحق ، فى أن يسالن عن السبب أيها الامبراطور » .

أما مدام دوستايل ، فقــد كانت من القوى الفكرية العظيمة فى عصرها ، وفى توجيــه التيارات السياسية فى أوربا حتى لنرى نابليون نفسه ايضا ، ينفيها من فرنسا ويصادر مؤلفاتها .

وفى ميدان الأدب ، تسطع مواهب الاخوات «برونتى» فوق البؤس والفشل وقوة الحياة ، وهن يتغلبن على بصرهن وايمانهن . ولم تنهزم تلك النفوس الشجاعة بل ظلت مثابرة تبنى حياتها ومستقبلها بالتحمل والارادة التى لا تقهر حتى اكتسحت شارلوت بقصتهــا « چين آير »

اعجاب القارة الأوربية جمعاء ، وعدت شقيقتها اميلى من أعظم شواعر القرن التاسع عشر ..

ولكن هل تحتمل الحياة الصاعدة خطوات الضعفاء ، أو ترضى النفوس الباسلة ، بالفشل والاخفاق ؟ ! كلا ! فهذه مارى كورى ـ المنعمة على الجنس البشرى ـ كما لقبها العالم ـ تواجه البؤس والعقبات الساحقة بتحد وقوة حتى تتغلب عليها .

ولم يكن انتصارها وزوجها ـ بيير كورى ـ وهما يقدمان للانسانية اجل الخدمات باكتشافهما لعنصر الراديوم ـ الا انتصار الانسان المكافح الذى يستطيع بتضحيته واصراره أن يخضع أقسى الظروف ، وان روح الايمان والمثابرة فيه ، هى التى تستطيع ان تحيا وتتوج بالنصر رغم عوامل الشقاء والاخفاق .

***

وبعد ، مع هذه اليقظة والانتفاضة الكبرى للأمة العربية ، تعود المرأة من جديد لحمل شعلة الحرية وحماية القيم وتحديد المصير ، فنراها كرمز ، شهيدة فى أم صابر فى مصر ، وفى حياة البلبيسى وحلوة زيدان ورجاء عماشه فى فلسطين بل فى اربعة ملايين جزائرية خضن معركة الحرية والايمان فى الجزائر ، وفى هذا الكفاح المؤمن الصامد للتحرر الكامل فى الخليج مع الرجال .

فرسالة المرأة ـ كما نرى ـ قيادية خلاقة كما هى فى بنائها الروحى للوحدة الأولى المقدسة .. أيضا الأسرة ، وهى التى تحدد بروحها وارادتها المستقبل ، لأن ابنائها ، هم المستقبل ، كما ان حرية الأمة ومجدها رهين بما تقدمه الملايين من النساء العاديات اللواتى يخلقن ويصنعن بخصائصهن الملهمة سعادة أمتهن وبطولاتها الخالدة وتاريخها .

وهنا لابد لنا أن نتساءل : هل فى المرأة روح الخلق والابداع كالرجل وهو القائد والفيلسوف والمبدع والمكتشف ؟

أجل ، فى المرأة روح الخلق والابداع ولكن فى التنسيق والنظام والجمال والرحمة والحنان فبالتنسيق والانسجام ترقى بالذوق وبالنظام

تخط للرجل دستور العمل والحياة وبالجمال تلهم الخير ، وبتلك الصفات التى ميزتها بها الطبيعة من رحمة وحنان ورقة ومرح وتضحية وعاطفة والهام يتم التوازن الانسانى بين القطبين الخالقين ــ المراة والرجل ــ القوة هنا قوة الرجل سند .

والصفات الأنثوية الرائعــــة تلهم وترفق الطبع وتسلس القياد ، وتحقق الطموح للرجل وتقوده الى النجاح والمجد ، بل انها شاركته فى هذا المجد والتفوق الانسانى فى كل المجالات ولا شك اننا نذكر فالنتينا السوفيتية التى تســاوت مع الرجل فى التحليق واكتشافات الفضــاء وهو نهاية الابداع والقدرات الانسانية .

وفنون المراة أو جاذبيتها ، من الخصائص المعنوية التى تستند اليها شخصيتها وأثرها البليغ فى الرجل كقوة دافعة له الى العظمة والمجد .

هذا نابليون لم يكن ــ حين اندفع الى فتح ايطاليا ، ذلك الفتح الذى بهر القارة الاوربية ــ قد تجــاوز الســابعة والعشرين من عمره ، ولكن كانت وراءه امراة دفعتــه بســحرها وطموحها الى النصر والمجد لأنها تريده ويرضيها !

« أى جوزفين ...

لقد الهمتنى ، ونفثت فى فؤادى حبا سلب منى الرشاد ، فما عاد يطيب لى العيش ، أو الرقاد .. وصرت لا أحفـــل بالأصدقاء ، لا ، ولا بالمجد .. ولـكن النظر يهمنى لانك تريديه ويرضيك .. ولو لم يكن هذا النصر الا لاجلك ومرضاتك ، لتركت الجيش مسرعا الى باريس ، لالقاك » .

فالمراة بروحهــا الملهم اذن ، هى البانيــة لـكيان الرجـل النفسى بثقتها وسحرها وتشجيعها له ووقوفها الى جانبه فى النعمة والبؤس وهى البانية للحيــاة الوطنية حين تؤسس مدرسة الشرف ــ التى تعلم الشعوب الدروس والمبــادىء العظمى فى الحياة والدين والأخـلاق والوطنية والصدق والـكرامة والعدل والحرية .. تلك الدروس التى تبنى منها المدنيات ، وتنعكس على المجتمع بأسمى القيم .

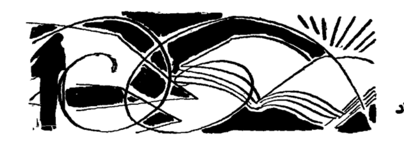
***

واخيرا ، لم أكن فى استعراضى لهذه الشخصيات النسوية التاريخية الخالدة ، ورسالتها وأثرها فى كل ميدان ، من ميادين الـكفاح للمثل

الاعلى للحرية والحياة — الشرقية منهـا والغربية — الا لأحمـل للمرأة العربية فى هذه الصور المشرقة القـدوة المثلى الممتدة عبر التاريخ ، كالمنار السـاطع ، « والمرأة — كما يقول جوته — من أثمن كنوز الأمة القومية » .

ولم تكن المرأة العربية فى ماضيها كما فى تاريخ أمتهـا من وراء الحركة ، بل كانت حاملة فكرة وطليعة كفاح هيأ لها مكانها المرموق فى علم القيم وتقرير المصير ، وصدارة التاريخ .

نابلس
فائزة عبد المجيد



نساء من وراء الخالدين :

خديجـــة

الملهمـــة رفيقـــة الجهاد

... القافلة الآن تعود من رحــلة الصيف الى الشـــام ، والحداة يهزجون والمسافرون تجتاحهم الأمانى والحنين ، وقد طال بهم الشوق للقاء الأهل والوطن ، الا محمد بن عبد الله . ترى اهــاجه من الذكرى شجن والقافلة تمر « بالأبواء » حيث يرقد جثمان أمه الغالية ، آمنةبنت وهب ، وتمثل موقفه منذ ثمانية عشر عاما وقد وقف على قبرها بعد ان هالوا عليها الرمال ليجد نفسه ــ ولم يتم السادسة من عمره ــ يتيما فريدا ، لا سند له ، ولا مال ؟ .

***

ويستفيق محمد من خواطره ، وقد لاحت أمام الركب مشارف مكة فيتجه الى البيت العتيق طائفا ثم يتابع طريقه الى دار خديجة ، وقد سبقته الرسل اليها بنجاحه فى رحلته ، وبالربح العظيم الذى حمله اليها ، فتلقاه لقاء كريما ، فيه الرضا ، وفيه الحنان ، وتستمع لأحاديثه وان فيها لقبسا من وحى ، ونفحات من نبوة ، أو لم يلقب محمد فى قومه بالصادق الأمين .. ؟

كانت خديجة الأسدية الأيم بعد زواج مرتين من بنى مخزوم ، ذات ثراء وجمال ومكانة فى قريش ، تدير شئونها المالية بنفسها ، يساعدها فى تجارتها الواسعة أبوها خويلد وعدد من الرجال الأمناء .

وحدثها ابوها ذات يوم عن شاب هاشمي يدعى محمد ، تميز من خلال رحلاته بالتجربة والمعرفة لنفسيات الناس ، الى قيم عاليةتجسدت فى شمائله وسلوكه ، فائتمنته على تجارتها.

***

ويستأثر حديث محمد عن رحلته بمشاعر خديجة ، وتملأ نفسها باحساس عميق ، وبوجد خفي .. وتتحدث بهذا الى صديقتها نفيسة ، فتسرى عنها ، وتعدها بالحديث اليه فى هذا الزواج ، وما فى نساء قريش وبنى هاشم من تفوقها عزة وعقلا وجمالا ونسبا .

***

وتعود خديجة الى نفسها ــ وقد تضاربت وجدانياتها مع أفكارها ــ لعلها كانت تفكر : ماذا سيتحدث الرواة عنها فى القبائل ، فخطبت وهى المرأة ، الرجل الى نفسها ؟ وهل يشفع لها عند قومها تلك المكانة التى تسمو بما فيها من تعقل وشرف ونسب ؟؟

***

وجاءت نفيسة تتحدث الى محمد حديث العاطفة والاستقرار ، والبيت السعيد الدفىء ، والمستقبل المأمول ولم لا يتزوج ؟ . وما هناك كزوج حنون تسبغ عليه الحنان عند القسوة ، والعون عند الألم ، والقوة عند الضعف ، وتحيل وحشة أيامه ولياليه انسا ، وطموحه مجدا .. ؟

قال محمد : ما بيدى ما أتزوج به ..

قالت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى المال والجمال والكفاءة والشرف ، أفلا تجيب ؟

وفهم محمد انها خديجة ، فوافق ، وانطلقت نفيسة الى صديقتها مبشرة ، كما انطلقت الألسنة تتحدث فى بنى مخزوم ، كيف تتزوج خديجة يتيما فقيرا وموظفا لديها ، مع تفاوتهما فى العمر ..؟

وأسرها عمه أبو طالب فى نفسه .. ايكون ابن أخيه جماعا لكل تلك الفضائل والمواهب ، وتقاس مقوماته بمال يفنى ومظاهر ... ؟ حتى اذا وقف بين الجمع من بنى مخزوم ، خاطبا خديجة لمحمد ، أشاد بذكر قريش وقال : ان ابن أخيه غنى بجوهره ، غنى بشرفه ونبله وفضله وعقله ، وبأن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة .

***

وتظل خديجة بعد زواجها من محمـــد ، قائمة على ادارة ثروتها لـكأنها كانت تلمح من وراء الغيب ، ان زوجها حامل لمهمة خطيرة ، عليه ان يخلص لها بكل قواه ووجدانه .

ويمضى على زواجهما خمسة عشر عاما كان حنان خديجة ، ورعايتها لمحمد ، عوضا له عن حياة يتم وحرمان ، وزادا لما هو معد له من الأمور العظام ..

ويميل محمد بعد هذه السنوات الى العزلة ، وتزداد رغبته فيها . ولم تعد خديجة تراه الا لمـاما ، فهو يقضى الساعات الطوال اما فى غار حراء جاثيا ، أو تحت وهج الصحراء سائرا ، متأملا ..

***

ويأتيها ذات يوم مضطربا ، منهوكا .. ويحدثها بهمومه وشكوكه فتقول له ، وهى تثبت قلبه :

« ابشر يابن عم ، فوالذى نفس خديجة بيده ، اننى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . والله ، لا يخزيك الله أبدا ، وانك لتصـــل الرحم ، وتصدق الحـديث ، وتحمل الـكل ، وتقرى الضعيف ، وتعـين على نوائب الحق » . وتشتد قريش فى ايذائه ، ولـكن خـديجة تقف من ورائه تبث الثقة فى نفسه وتشد عزمه ، ويجتاز محمد أزمة روحيـة حين يتوقف نزول الوحى عليـــه ، فيعتريه جزع شديد ، فيرجع الى خديجة حائرا مرتاعا . فتدخل السكينة الى قلبه ، مؤمنة بأن الوحى سيعود ، وان الله اختاره ، دون غيره ، للرسالة .

***

وتقاسم خديجة محمدا العذاب والاضطهاد ، والخروج من الوطن ، لائذة معه ، ومع المسلمين بشعب أبى طالب لثلاث سنوات ، تعرضوا فيها لألوان من التعذيب والحرمان والمقاطعة ، وذلك حين تعاقدت قريش على مقاطعة بنى هاشم ، وحرمت المعاملة معهم ، وحاصرتهم . فشاطرتهم خديجة هذه المحنة على ضعفها وقد بلغت الستين من عمرها . حتى اذا زال عهد المقاطعة ، وعاد محمد الى مكة ، اذا به يفتقد ذلك الروح الكريم الحنون : يفتقد فيهـــا أعز نصير وأوفى صديق فيسمى عام موتها عام الحزن ، وقد طوى الموت معه عمه ومجيره الآخر ، أبو طالب .

***

تموت خديجة لتشتد قريش فى ايذاء محمد ، ولكن لتقف الزهراء ابنتها من ورائه فى المعـــارك مضمدة للجراح حانية لـكأنها صورة للأم

المجاهدة ولذلك الشعاع الذى غاب ، ولتبلغ الرسالة مداها الكامل ، فتملأ الانسانية حقا وعدالة ومساواة ، ولتسجل معها سيرة امراةعظيمة وقفت من وراء نبى تجدد وتبعث فيه القوى والثبات ، وفى أحلك ساعات جهاده الى ان تحقق النصر له ولغاياته العظام ، وليذكرها أجمل الذكرى ويؤثرها على أزواجه الأخريات فيقول لعائشة ـ وانها الشخصية الساطعة فى الاسلام ، والحاملة للواء العلم والشريعة فيه ـ حينما أنكرت منه هذا الايثار لخديجة ، وقد أبدل الله خيرا منها ، يقول لها : والله ، ما أبدلنى الله خيرا منها آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها ، من النساء .

***

وبعد ، اذا كانت العظمة على قدر المسئولية ، فقد حددت عظمة خديجة مسئوليتها تجاه صاحب الرسالة . اذ لم تكن زوجا له فحسب ، بل أما ومستشارة والهاما مع الهامه ، وامينة لأسراره ، ورفيقة لشدائده .

كذلك ، اذا قيست العبقرية بالشخصية ذات الأثر الفعال ، فقد كانت خديجة الشخصية التاريخية التى تلاقت لديها الكفايات والمواهب ، والايمان والشجاعة على تحمل الألم ، تلك الصفات التى تجعل الموعودين بالقيادة ، سادة فى انفسهم ومقرورين لمصائرهم ، ومصائر شعوبهم .

أجل ، لقد شاركت خديجة زوجها آماله ومخاوفه واضطهاده وقاسمته حياة كفاح وجهاد جعلت منه قائدا وزعيما ونبيا ، ولتظل سيرتها العاطرة الخالدة ، لكل فتاة ، ولكل أم عربية ، قدوة ، وروحا علويا هاديا .

فاطمة الزهراء

المثل الأعلى لنساء العرب

لم تعرف فاطمة الزهراء ، الا أنها صورة صادقة لأبيها الرسـول العربي الكريم محمد عليه السلام في خلقه العظيم وانسانيته ، وما عرف عنها الا أنها المثل الأعلى لنساء الاسلام فلقد كانت في مقدمة صـفوف الجهاد في سبيل الدعوة كما خاضت الى جانبه المعارك تضمد الجراح وتشد عزائم المسلمين في قتال المشركين اعداء الدعوة اعلاء لـكلمة الله والحق ، مع رفيقاتها في الجهاد : أم عمارة المازنية وام هانيء ، ورفيدة وأسماء وغيرهن ممن رافقن الرجال في سـاحات المواقع ، وكان لهن الشأن الجليل الخطير في تلك الانتصارات الخالدة للاسلام في الجزيرة العربية ، اذ كن الى جانب الرجال عامل نصر وقوة بجهادهن والهامهن .

ولقد اقتبست الزهراء عن أبيها تلك الصفات النبوية العظيمـة في الصبر والرحمة والتضحية والبر بالفقراء ، كما ورثت عنه قوة ايمانه وتحمله للمتاعب والحرمان . فما اشتكت يوما من حرمان او ضيق الم بها . كما كانت تتقبل المصاعب والمتاعب بصبر وجلد وايمان لتـكون القدوة الكريمة ، والمثل الساطع لنساء العرب رسالة وخلقا وجهادا .

ولدت الزهراء قبل البعثة بخمس سنوات . وكانت الابنة الرابعـة لأبيها محمد عليـه السـلام ، والاثيرة لديه ، بعد أن خلا البيت من شقيقاتها : زينب التي تزوجت من ابن خالتها : العاصي بن الربيع ، ورقية وأم كلثوم ، وقد تزوجتا من ابني ابي لهب .

وعندما تسري شرارة الدعوة فيالجزيرة العربية يلازمها كفاح شديد وعزيمة ماضية ، فنرى النساء اللواتي بايعن الرسول على الاسلام ، وفي

مقدمتهن الزهراء فى مهب التيار العنيف الذى اثارته قريش ، والقبائل الموالية لها فى وجه الدين الجديد .

ويتلاقى افراد البيت النبوى الكريم حول الدين الجديد ، وينصهرون فى بوتقة ذلك الجهاد والاذى والعذاب فى سبيل المبدأ وان من حمل رسالة عظيمة ، لابد ان يلقى لأجلها العظائم ، اذ لا نصر دون تضحية . وهكذا وقف افراد البيت الى جانب محمد مجاهدين مضحين . وكانت فاطمة اقرب الناس الى أبيها واشدهم ايمانا وعملا لأعباء الرسالة ، وقد قدر لها أن تشهد معه تلك الحروب العدائية التى اشعلتها قريش ، ثم الحملات الأخرى الماكرة ليهود الجزيرة ومشركيها ، كما كان لها النصيب الاكبر من ذلك الجهاد ، والوقوف الى جانبه فى المعارك ، وحينمافاضت روحه الزكية ، والتحقت بالرفيق الأعلى.

ولقد شهدت فاطمة مراحل هذا الجهاد العظيم ، شهدت قريش العاتية تضطهد اباها ، شهدته يضرب المثل الأعلى للعرب فى الصبر والتضحية لا يهن له ايمان ، ولا تتزعزع له عقيدة كل ذلك فى سبيل المبدأ الذى جاهد من أجله وسار فى طريق محفوف بالمخاطر والمحن ولكنه لا يتراجع أو ينكص عن تبليغ رسالته ، حتى لقد اسالوا دمه ونثروا التراب على رأسه ، وما كان ليتخلى عن دعوة ربه ، بل ليقول لها حين تنكب باكية عليه ، لتغسل جرحه : لا تبك يا بنية ، فان الله مانع اباك .

فى هذه المدرسة العظيمة الخالدة تعلمت فاطمة شرعة الحق والعدل والانصاف وان اباها لايحجم عن قطع يدها ان احيطت بتهمة كأية امراة مسلمة ، ولن يشفع لها انها ابنة محمد . وكما تحدثنا كتب السيرة عن تلك المراة التى سرقت بعد ان اسلمت ، واشفق المسلمون من أن تقطع يدها فجاؤا اليه مستشفعين . فقال « صلعم » لأسامة الذى كلمه فى شأنها : لا تكلمنى يا اسامة فى شأنها ، فان الحدود اذا انتهت الى ،فليس لها مترك ، ولو كانت فاطمة بنت محمد ، لقطعت يدها ، « وهو بهذا يشير الى مكانتها لديه » .

ولقد اوتيت فاطمة رضى الله عنها ، شجاعة القلب ، وقوة الروح ، والاستعداد لقبول الأذى فى سبيل الدعوة ، وامتحنت بايمانها وصبرها اقسى امتحان ، وقاسمت اباها الاضطهاد ، وسارت معه فى لفح القيظ وعلى الصخور الملتهبة ، وصحبته الى شعب ابى طالب ، حين قاطعته قريش ومنعت عنه وعن صحبه الزاد طيلة ثلاث سنوات ، وكانت لههناك خير رفيق ومعين .

وتبلغ فاطمة الثامنة عشرة من عمرها ، حين اراد على بن ابى طالب ان يخطبها من ابيها ، ولكن ما تراه يصنع ؟

وشجعه صحبه ، انه لا يملك المال ، ولكن لديه ما هو اثمن من المال ، لديه العلم والشجاعة ، وليس هناك ما يضاهيه فى قريش عزيمة ونجابة وذكاء .

وسأله محمد « صلعم » وقد اتاه يطلب الزهراء : وهل عندك شىء ؟ ويجيب على ، لا يارسول الله . ولكن الرسول يطلب اليه — وهو يقصد أن يعطى العرب درسا بليغا فى قيمة الرجال الذين يبنون مجدهم بعظيم الصفات وبالعلم لا بالمال — ان يبيع درعا لديه كان قد اصابها من مغانم بدر ليجهز العروس بها . وهكذا باع « على » الدرع الى عثمان باربعمائة وسبعين درهما .

وجهزت الزهراء بهذه الدراهم ، ولم تدخل الى بيت زوجها الابخميلة ووسادة ، ورحاوين وسقائين ، وشىء من العطر الطيب ، وكان عليها ان تكدح جاهدة فى عمل البيت ، قائمة بالعمل دون مساعد .

وتنوء فاطمة بعبء العمل المنزلى من طحن للقمح بالرحى ، وتهيئة للطعام وغسل الثياب ، وزوجها ، لا يملك التخفيف عنها بشىء لفقره . حتى اذا عاد النبى من احدى غزواته ، قال لها زوجها : لقد شقوت يا فاطمة حتى أسلبت صدرى . وقد جاء الله بسبى . فاذهبى والتمسى واحدة تخدمك .

وتذهب فاطمة لأبيها . ولكنها تعود دون أن تفاتحه بما تريد خجلا منه . ويرى على أن يذهب معها ليطلب من النبى ما خجلت من البوح اليه به ابنته . ولكن النبى لايميز ابنته وزوجها عن غيرهما من المسلمين ، بل يقول لهما : لا والله ، لا اعطيكما ، وادع أهل الصفة تتلوى بطونهم ولا اجد ما انفق عليهم . ولكن ابيع ، وانفق عليهم بالثمن .

ويعود الزوجان الصابران الى بيتهما ، ويجن الليل عليهما ، وهما مقروران لا يجدان الا غطاء ان غطيا به راسيهما ، بدت أقدامهما ، وما يدريان ان شكواهما قد مست كوامن الرحمة فى قلب محمد « صلعم » وشغلته ، فما يستطيع الا ان يطرق بابهما ليلا ، ليزودهما بالمساعدة والعون . ولكنه لم يكن الا زادا روحيا . وانه دعاء جاء ليعلمهما اياه وهو الصبر والتمسك بحبل الله ، ليعطيهما من عنده .

وتؤثر هذه المتاعب على صحة الزهراء مع ما ذاقته فى حداثتها مع ابيها من مشاق الجهاد والهجرة والمقاطعة التى منعت بها عنهم قريش الزاد والعمل طيلة ثلاث سنوات كما ألمت بها ضائقة نفسية اخرى ،

اوشكت ان تعصف بالبيت الهادىء . فلقد أوشـــك « على » أن يتزوج عليها ـ جريا على عادة العرب ـ بابنة عمرو بن هشام المخزومى . وغضبت الزهراء وعز على ابيها ان تهدد ابنته الغالية فى صفو حياتها ، فسـعى حتى انصرف على عن هذا الزواج وانقشعت عن الزهراء تلك الغيمةالتى ظللت افق حياتها حينا .

ولكن يشاء الله ان يجزى صبرها بتلك العطايا الالهية المباركة حين رزقها بالحسن فى السنة الثالثة للهجرة ، ثم بأخيه الحسين بعـد عام وبعض عام .

ويشرق البشر فى بيت محمد ، وفاطمة تملاه بتلك النعمة الـكبرى التى افتقدها فى ولديه قبل الفطام : ابراهيم والقاسم .

ويضفى محمد « صلعم » على السبطين حنانه العظيم ، حتى ليـؤثر عنه انه قال فى الحسين : « حسين منى ، وانا من حسين . أحب اللهم من أحب حسينا » .

وتشهد الزهراء مع ابيها فتح مكة . وتسير معه ، وقد سار ميممـا شطر البيت الحرام بعد ثلاثة عشر عاما من الجهاد العظيم للدعوة ،وثمانية اعوام من الهجرة والكفاح للحق ، تكللت بالنصر ، والفتح المبين .

وتغادر الزهراء بعد هذا مكة الى المدينة ولم يجاوز مقامها فيها غير شهرين وبعض شهر منكبة على رعاية بنيها . ولكن هذا الصفاء ، لم يلبث ان تبدل حزنا عميقا ، وذلك حين الم بأبيها المرض الأخير ، ولم تسـتطع الزهراء أن تخفى عليه جزعها وأساها العميق . أو لم تكن أحب الناس اليه ؟؟

ولكن الرسول الكريم ، لم يشأ ان يغادر الدنيا الى مكانه بين الأنبياء والشهداء فى الرفيق الأعلى وقد أساءه حزن ابنته فاطمة عليه الا ان يسر اليها بأنها سوف تكون أول من يلحقه من أهل بيته ، ثم يضيف : « الا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ » .

ولكن هل تنسى الزهراء ابيها ؟ كلا ، اذ ما برحت تزور قبره الزكى وتبكيه وتنشده وهى تتشمم قبضة من ترابه :

ماذا على من شم تربة احمـــد
الا يشـم مدى الزمان غواليا

صـبت على مصـائب لو انهــا
صـبت على الأيام عدن ليـاليـا

وبعد ، لقد كانت الزهراء ــ كما أراد لها أبوها العظيم ــ سيدة نساء العرب حقا ، لسمو سجاياها وكريم صفاتها . كما انه كان لها دورا سياسيا بارزا اثر وفاة أبيها ، اذ رات أن الواجب يدعوها لتخرج من عزلتها للسعي لرد الأمر الى أهل البيت . واخذت لهذا تطوف بمنازل الأنصار بيتا بيتا ، ليؤيدوا زوجها أبا الحسن فيما يطلب من حق. ولكنهم يجيبونها : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبى بكر . ولو ان زوجك ، وابن عمك سبق ، لما عدلنا به احدا .

ويقول الامام على : « افكنت أدع رسول الله فى بيته ، ولم ادفنه واخرج أنازع فى سلطانه ؟ » .

وترد فاطمة : ما صنع أبو الحسن الا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم » .

ويعلم ابو بكر وعمر بغضبها ، ويسرعا اليها لاسترضائها ، وتقول لهما : ارأيتكما ، ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتعلمان به ؟ ويجيبانها ، بنعم . قالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول :

« رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى ، فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ويجيبانها : بلى لقد سمعناه من رسول الله .

ويرتاع ابو بكر لقول فاطمة وغضبها ، ويخرج الى المسلمين وهو يعلم مكانتها من ابيها ومنهم ليقيلوه من بيعتهم حتى لا تكون فتنة ، ولكنهم يأبون الرجوع عن بيعته .

ويعز العزاء على الزهراء ، ويضنيها الحزن على أبيها ــ صلوات الله عليه ، فتلحق به ويطويها الموت بعد شهور . ولكن ليعود التاريخ بعد هذا الى فتح صفحات كفاح اخرى لآل البيت مليئة بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، وتصارع الطالبيين ، وخدعة الدولة الأموية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما صاحب ذلك من جليل الأحداث ، وما تخلف عنها من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الاسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين ، ولكن لتظل الزهراء الصفحة الخالدة فى الجهاد النسوى العربى ، والشخصية العظيمة التى رباها الرضا والصبر والايمان ،لتكون سيدة نساء الاسلام .





صانعات التاريخ

في اعظم المواقع الحاسمة في تاريخ الفتح العربي، سجلت المرأة العربية دورها الخالد . فكانت الى جانب قومها في تلك الفترات عامل قوة ونصر وحاملة لعقيدة ورسالة .

في هذه الفتوح ، كان للمرأة العربية اثرها البليغ في اعلاء الروح وصدق الجهاد . وفي حديث لأبي امامة عن النسوة المجاهدات في معركة اليرموك ، انهن قاتلن في ذلك اليوم بشجاعة وايمان عظيم؛ فقد خرجت جويرية بنت ابي سفيان، واسماء بنت ابي بكر ، وام حكيم بنت الحارث ابن هشام مع ازواجهن للقتال ، وكان دورهن في شد العزائم والحث على القتال والثبات في المعركة قويا مشهودا .

ويذكر التاريخ أن اسماء بنت أبى بكر الصديق، كانت تمرض زوجها الزبير فى الخيمة ، فرأت جيوش المسلمين آخذة فى التقهقر ، والنساء العربيات ، قد اخذن يضربن وجوه المتقهقرين وخيولهم بأعمدة الخيام ويعدنهم الى المعركة،وان اسماء قالت لخالد ابن الوليد مؤنبة له :

« يا خالد : اما تتقى الله تكون أمير هذه الأمة وتولى الكافرين دبرك ؟

فقال لها : وماذا أصنع يا ابنة الصديق ،بهذه الجيوش المتقهقرة ، فاننى اقاتل الجمع القليل فلا اخشاه ، والجمع الكثير فلا انهزم منه . »

هنالك انبرت اسماءللمجاهدين مثيرةلحماستهم ملهبة لقلوبهم قائلة : ارغم الله انف قوم يرون أميرهم مجاهدا فى سبيل الله ، يقاتل اعداءه غير مدبر ، ويولون الكافرين دبرهم . » فكان لقولها هذا اعظم الأثر فى نفوسهم ، فثبتوا وقاتلوا مستبسلين حتى اتاهم الله بالنصر والفتح .

ولم يكن الوعى العربى للفتح والمجد لدى الرجال يفوق ما لدى النساء قوة وأثرا فقد كان هذا الوعى ، وعى حركة كما كان وعى عقيدة لديهن . آمنت العربيات من ذوات القيادة الروحية والشأن والتاريخ كأسماء ام عبد الله بن الزبير ، وهند بنت عتبة أم معاوية ، وخولة بنت الأزور ، وأم عمارة نسيبة المازنية ، وام ابان زوجة عكرمة ، بأن العناصر المحركة الظافرة للأمم من شرف وايمان وانكار للذات ، وحب للمجد والتضحية ، انما هى التى يجب ان يتقاسم حمل اعبائها الجنسين ودفع ضريبة الكفاح فيها . فرافقن جيوش الفتوح ، وكن فى معركة اليرموك ، الصوت البليغ المدوى والمنعرج الذى تحول معه سير المعركة ، بل سير التاريخ العربى لتلك الفتوحات التى لم تتوقف ، منذ خروجها من الجزيرة فى سيرتها الكبرى المظفرة مرفوعة الأعلام حتى افريقيا وشواطىء الأطلس واسوار الصين .

خولة بنت الأزور

حاملة اللواء .. فى اليرموك ..

منزالت خولة بنت الأزور اروع صفحة فى تاريخ العرب ، صفحة ما تنفك تزداد توهجا على الزمن ، منذ أن كتب التاريخ سيرتها العاطرة بأحرفه التى لا تنسى ..

بدات خولة بنت الأزور جهادها ، حين خرجت مع أخيها ضرار بطل الاسلام ، مع جيوش الفتح العربى ، ورافقته فى معركة اجنادين ، تلك المعركة التى وقعت فى جنوب فلسطين والتى انتصر فيها العرب على الروم ، واشتركت فيها النساء العربيات ، وفى مقدمتهن خولة .

وتتصف خولة ــ بالاضافة الى جمالها العربى ، بالشجاعة والاقدام . وتبلغ هذه الشجاعة فى خولة حد البطولة الخارقة والتضحية حين تندفع الى مهاجمة الروم بمفردها ، وتأتى بضروب من البسالة الرائعة لخلاص أخيها من الأسر .

فلقد اسر الروم اخاها ضرارا وهب خالد بن الوليد فى طليعة جنده لانقاذه ، حتى اذا اشرف على العدو اذا بفارس امامه ينقض مهاجما لصفوفه ، مزعزعا بطولته لكتائبه ، مجندلا لابطاله ، فاثار الاعجاب والتساؤل بين الجيش : من البطل ؟ اهو سيف الله خالد ، الا لكم من يشبهه ؟ . ولم يدر خالد من الفارس الملثم ؟ . حتى اذا أخرج من القلب ظافرا مخضبا بالدماء ، ناشده ازاحة لثامه والبوح باسمه ، محييا شجاعته ، قائلا له :

« ويحك ، لقد شغلت قلوب الناس ، وقلبى بشجاعتك ، فمن انت ؟؟ »

وتجيب خولة :

« أيها الأمير : انني لم أعرض عنك الا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وانا من ذوات الخدور ، وبنات الستور ، وانما حملني على ذلك ، انني محرقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال لها خالد من انت ؟

قالت :

« انا خولة بنت الأزور ، اخت ضرار الأسير ، وكنت من بنــــات العرب ، وعلمت أن اخي اسير ، فركبت وفعلت ما رأيت . »

« ويرق لها خالد ، مكبرا لبطولتها ، فيأمر جنده بالحملة على الروم لتحرير الشقيق البطل من الأسر ، والروم يقولون : اذا كان القوم كلهم مثل هذا الفارس ، فما لنا بهم من طاقة » .

« وترافق خولة الجند ، وعاصفة من القلق والأسى تجتاح كيانها ، ولتلك هي تطلب اخاها فما تجده ، تناديه ، فما يجيب ؟ »

« ليت شعري — يابن امي — في اى البيداء طرحوك ، ام بأى سنان طعنوك ، ام بأى حسام قتلوك . أختك لك الفداء . تركت في قلب اختك جمرة لا يخمد لهيبها . ليت شعري ، الحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي « صلعم » ؟؟ »

ويستفيض بخولة الحزن وتتساقط من عينيها عبرات لم تستطع أن تحجبها البطولة وتقسم لتأخذن بثأره ، منشدة ، فيما يواصل السير معها من الجنود ، لخلاص البطل :

وانا معشـــــر من مات منــــــا
فليس يمـــوت موت المســــــتكين

واني ان يقـــــال مضى ضــــرار
لباكيـــــة بمنسـجم هتــــــون

وقـــالوا : لم ابــكاك ؟ قلت مهــلا
اما ابكي وقـــد قطعـــــوا وتيني ؟

ولم يستعص على خولة منال ، والحق رائدها فذلك هو النبأ يزف لها البشرى بأن اخاها حي ، فتسرع مع الجنود لتحـــريره من الأسر ، والروم تحدق به ، والوثاق يشد كتفيه ، والنداء منه يطرق منها السمع والقلب لتجيب : ؟

« لبيك اختك يا ضرار ، أنا خولة ، ثم تصيح الله اكبر . وتنقض ومن معها على العدو بحملة صادقة تحرر بها الشقيق الاسير من ربقة الأسر ، عائدة به الى معسكر العرب . »

ولخولة موقف بطولى آخر فى التاريخ وذلك حين وقعت أسيرة بين يدى الروم مع فريق من رفيقاتها العربيات فى « موقعة صحور » ، فلم تقبل الضيم ، بل نادت بهن بألا يرضين بعبودية الروم مستثيرة حميتهن، ثم تقدمتهن للدفاع عن حريتهن من الروم بأعمدة الخيام حتى تخلصن من الأسر ، بعد ان قاتلن قتالا شديدا ، منشدات ،

« نحن بنـــات تبع وحمـــير
وحربنا فى القوم ليس ينـــكر

لاننـــا فى الحـــرب نار تســـعر
اليوم تســـقون العذاب الأكبر »

ولكن دور خولة الخالد فى التاريخ العـــربى ، هو يوم معركة اليرموك فقد كانت خولة والمجاهدات العربيات فى عداد كتائب المجد التى حددت الأبعاد لذلك التاريخ الخالد ؛ وذلك حين تكاثرت الروم على العرب ، وهم اعظم عدة وعددا وركن العرب الى الفرار مرتين فأعدنهم بأعمدة الخيـــام واهازيج الحرب الى ساحات القتال ، ولتسرى فى الجيوش العربيـــة قوى جديدة ، وعزائم جديدة رجحت معها كفة النصر مع العرب ،ولتمتد فتوحاتهم عبر قارات ثلاث فى أقل من مائة عام .

***

فى فتح مصر ، تشترك خولة مع رفيقاتها فى الفتح اشتراكا فعليا ، وتعد هذه البطولة مفخرة العرب النسوية ، مثبتة فى سجلها الحافل :

ان المراة العربية ما كانت — وان تكون — من وراء الحـــركة بل فى مكانها المرموق فى القيادة وفى دعم القوى وسلم القيم كتفا الى كتف مع الرجال فى وحدة لا تنفصل ، فى المعارك وفى كل ميدان .





المرأة والتصوف

أحقا ان الله هو الحب ، وان هذا الحب هـو الايمان الذى يفنى فيه الانسان حبا وتقربا اليه ؟ وهل أحست رابعة بهذا الايمان يملأ جوانحهـــا ويكشف عن بصيرتها الأستار ، فدعت الى حب الله لذاته لا حبا فى جنتـــه او خوفا من ناره ؟؟ وهل تملكها هذا الحب وما برح كأنه فى خاطرها نجوى ، وفى قلبها صلاة تهز بها كبد الليل وجنبات السماء؟

كن معى يا الله فى نضـوب الصـــبر وهبوب العاصفة ، كن لى القوة فى الضعف ، والحقيقة فى الشك ، والنور فى الظلمة ، والرخاء فى اليأس ؟؟

***

لا ريب ان رابعة العدوية التى سمت الى هذا الاحساس والايمان والارادة التى لا تهزم ، انما هى ظاهرة من ظواهر هذا التاريخ العربى الحافل الذى اثبتت فيه المرأة العربية انها ليست دون الرجل قوة تحمل واتساع افق ، واحساسا بالجمال الاسمى وعمق الثقافة اذ ان المعروف ان هذا الميل الى التصوف لايظهر الا لدى المثقفين الذين يتمتعون بهذا الاحساس بنسبة عالية بما يتطلب من قوة روح، وسهر طويل ونظام دقيق صارم ، وان يكن مرهقا للجسد فهو موقظ للروح مرهف للحس .

ولقد سمت رابعة بهذه العبادة ، وبهذا الفن الوجدانى العذب الى أرفع درجات السمو اذ كانت عبادتها لله ، لا لغاية تطلب ، أو نازلة تدفع .

لم تنقطع رابعة الى الحياة، حياة التبتل والزهد لجراحات نفسية، أو لمرض أو لتكون عبئا على المجتمع كما يفعل البعض ، وإن السعادة والغنى والجاه كل ذلك بين يديها لو شاءت ، بل كان التصوف لهـا صفة سامية أو كما يقول أبو يزيد البسطامى : «انه صفة الحق يلبسها الحق » وفلسفة دينية كمايرى الن نيكلسون « أن التصوف فلسفة الاسلام الدينية » .

فاذا كان التصوف قد علا برابعة الى هذا المقدار من الادراك والعظمة الفكرية ، فما أحقها ان تكون من قوى الحق والفيلسوفة الأولى بين نساء العرب .

رابعة العدوية

الشاعرة المتصوفة الفيلسوفة

فى مستهل النصف الثانى من القرن الاول للهجرة ، ولدت رابعة العدوية الشاعرة المتصوفة فى البصرة ولم يسبقها فى سلك هذه العبادة الروحية من النساء ــ كما يروى التاريخ الا « معاذة العدوية(١) »واشربت رابعة بهذه العاطفة الانسانية عاطفة الدين وقد كان فى ذلك العصراساسا للأسرة وللحياة الاجتماعية ، ولكنه لم يكن ميزة الكثيرين . وجاءت رابعة من بين النساء لتتفوق فى هذا التامل العظيم ، وترفع مشعله المنير الى جانب الحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، وابن عربى ، والحلاج من الرجال .

وعرفت رابعة بالتقوى والعلم والأدب وكان مجلسها كعبة لكبار المتصوفين والأدباء من امثال الملك دينار حاكم الكرج ــ والشاعر بليغ ــ وغيرهم ...

***

وحل اليتم والعذاب والبؤس والاضطهاد برابعة منذ طفولتها الباكرة، اذ مات أبوها دون أن يترك لها شيئا من متاع الدنيا وفى وقت استحكم فيه القحط . وزاد فى حظها التعس ، انها وقعت تحت اسر رجل ظالم،

---

(١) من أقدم زهاد البصرة الأول [illegible] عائشة [illegible] وكانت [illegible] كثيرة العبادة [illegible]

ما لبث ان باعها الى آخر اشد منه قسوة . وقاست رابعة فى كلا الأسرين اشد العذاب ولكنها لم تتململ وما كانت تشكو عذابها الا الى الله .

وفى جنح الليل كانت رابعة تقضى الليل فى بيت سيدها ساهرة تتهجد . واستمع اليها هذا السيد الجديد ذات ليلة تناجى ربها ، بأنها لا تملك ما تؤديه اليه من حقوق وهى أسيرة وتقول :

« رب انك تعلم ان اشد ما أتوق اليه هو عبادتك ، وتأدية مالك من حقوق ولكنى اسيرة لا املك حريتى الشخصية ، وليس من سبيل الى تحقيق هذه الغاية ، فلتعذرنى يا الهى » .

ويرق سيدها لهذه النجوى الخالصة لله ، ويطلق سراحها تاركا لها مع هذا الخيار فى أن تبقى اذا شاءت ، فآثرت الحرية لتعيش من عرق كفاحها . ولكن انى لها ان تفكر فى طلب القوت وهناك حب عظيم تملك عليها القوى ، وصرفها للفناء فيه ؟

واعتكفت رابعة للعبادة ، وعرفت فى اعتكافها البؤس والوحدة والحرمان والألم ، ولكنها كانت تعف عما يقدمه اليها الناس . ومرضت ذات يوم ، وجاءها الحسن البصرى يعودها ، فوجد على بابها تاجرا يبكى ، فلقد ردته رابعة وقد جاء يحمل اليها كيسا من الذهب ، على ما بها من حاجة ولقد قدم اليها احد التجار ذات يوم داره لتمكث بها ريثما تصلح دارها الخربة ، فقبلت . ولكنها حينما رأت ما فيهامن ضروب الزينة غادرتها قائلة : « لن أعود الى هذه الدار،ولو مكثت فيهااستهوانى لطفها ، دون ما انا متجهة اليه من الأخذ بأسباب الآخرة » ثم اتجهت بجميع ارادتها الى الله لا تتلفت الى شىء من أمور الحياة .

وتموت زوج الحسن البصرى ـ وهو على ما نعلم من سمو منزلة وسعة علم وشهرة طبقت آفاق العالم الاسلامى ـ فيطلب يدها للزواج ، ولكنها ترفض قائلة : « انما يتزوج من يملك ارادة نفسه وانا وضعت نفسى تحت ارادته وتصرفه» قال وكيف وصلت الى هذه الدرجة ؟ قالت: بمحو النفس وفنائها .

كانت رابعة تصوم سبعة أيام ، وتنقطع ليالى طويلة الى العبادة ، وكأنما تمرست بهذا الحرمان ، وهذا العذاب حتى فنيت فيه ، ولم تعد تحس بوطأته القاسية .

وزارها سفيان الثورى مع صاحب له ذات يوم ، ولم يتمالكا نفسيهما من البكاء لما شاهدا من نحول جسمها ووهن قواها ، فقال لها سفيان : يا أم الخير ، هلا طلبت من الله أن يخفف عنك بعض الألم ،

قالت : من هو الذى يعذبنى ويسبب آلامى ؟ قال : هو الله . قالت : اذا كان هـــذا أمر ربى ، فكيف اخالفه ، واطلب منـــه تخفيف الألم ؟ ..
واحبت رابعة الله حبا ملأ قلبهـا ، وتفجرت شـاعريتها من هذا المورد الخالد ، انقى واصفى ما تكون الشاعرية والالهام :

احبك حبين حب الهـــوى
وحبـــا لأنك اهـــل لذاكا

فأما الذى هو حب الهـــوى
فشـــغلى بذكرك عمن ســـواكا

واما الذى انت اهل لـــــه
فكشفك لى الحجب حتى اراكا

فلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمـــد حتى اراكا

***

وعاشت رابعة فى ظلال هذا الحب الروحى تستمد منه قدرة على تحمل المشاق والعذاب حتى الموت . وما فارقها التجمل بالصبر ، والزاد قليل ، والمسير طويل :

وزادى قليـــل ما اراه مبلغى
الزاد ابكى أم لطول مســـافتى

اتحرقنى بالنـــار يا غاية المنى
فأين رجائى فيك ، اين مخافتى ؟

وماتت [1] رابعة فى السنة الخامسة والثلاثين هجرية بعـد المائة ، ولكن سيرتها وفناءها فى سبيل الهدف الأسمى سيظلان درسا للأجيـال ماكانت الروح الدينية عنصرا جوهـــريا من مقومات الانسان ، ولحنا سرمديا مازال يحيا ويتغنى على مر الزمن ، وفى اسماع التـاريخ بأحر واصدق صلاة تتعالى بصدقها وصفائها الى الله ..

---

(١) دفنت رابعة فى رأس جبل الطور شرقى « القدس » ومازال مدفنها معروفا يؤمه الناس للزيارة هناك .

ذات النطاقين

أسماء بنت ابى بكر الصديق

الله مع الحق :

لبث عبد الله بن الزبير امام امه اسماء طويلا وهى مطرقة تفكر ،وقد جاء مستلهما اياها الراى والمخرج مما يحيق به من بلاء ، والحجـــاج يحاصر مكة ، ويرمى الكعبة بالمنجنيق ، وقد تخلى عنه منـــاصروه الا القليل ..

ترى فيم كانت تفكر اسماء ظهيرة النبى فى جهاده ودعوته ، اتراها تستعيد فى خواطرها ما شهدت من مواقف واحداث جسام يوم وقفت الى جانب ابيها تناصر محمدا وقريش تبالغ فى اضطهاده فما يجـزع او يتزلزل له ايمان لخطر وشيك ينبهه اليه صاحبه ، بل ليقول له :لا تحزن، ان الله معنا ؟ »

اتراها تستعرض تلك المواقف الحازمة الحاسمة لأبيها يوم وقف فى وجه العاصفة التى عصفت بجزيرة العرب «اثر وفاة الرسول » والقبائل ترتد عن الاسلام والثورات الداخلية تنتشر فى كل مكان ، فما يتداعى له عزم ، بل يواجهها بكل ما فيه من حزم وقوة ويبادر الى تسيير الجيوش الى المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة عاقدا اللواء لقتالهم على احد عشر قائدا فى وقت واحد ؟؟

أو لم يخرج ابو بكر بنفسه للقاء المرتدين عندما هاجموا المدينة ويقول حينما ناشده اصحابه الا يعرض نفسه للخطـــر : « والله لا افعـــل ، ولأواسينكم بنفسى » حتى آتاه الله النصر وقضى على تلك الثـورة التى كادت ان تفرق كلمة المسلمين ، وتصدع اركان الوحدة العربية ؟ اجل ،

لقد واكبت أسماء كل هــذه الأحداث التى مرت بأبيها فى صحبته مع النبى وشاركت فيها منذ حادثة الغار الى ثبـــاته معه فى أحد وحنين ونهوضه لاتمام نشر الدعوة واتمام كلمة العرب ، بعد أن كادت تتمزق ، وجعله من المسلمين جندا فى سبيل الله ، فى خارج الجزيرة العربيةحتى اديل لهم من دولتى الفرس والروم العظيمتين ! افتراها من بعد هذا ، لا تدفع بابنها عبد الله الى نهج طريق شقها جده بقوة الروح والثبـــات فى الخطوب ، وقد صيغت من تلك البيئة المؤمنة المجـــاهدة وتمرست بعظائمها ؟؟

اسماء فى المعركة الخالدة :

ولدت أسماء سنة ٢٧ قبل الهجرة وهى أكبر من اختها لأبيها عائشة ام المؤمنين بعشر سنين وشقيقة عبد الله بن ابى بكر . واسلمت اســماء بعد سبعة عشر انسانا ، وبايعت النبى وآمنت برسالته ايمانا عظيما كما شهدت مع خولة بنت الأزور واقعة اليرموك : مجاهدة فى كتيبةالمجاهدات العربيات وخطيبة تقف الى جانب القائد العربى خالد بن الوليد تشـــير بقولها البليغ حميات الجيوش العربية حين تقهقرت وتخلت عنه ، ويكون لقولها ابعد الأثر فى نفوسها حتى عادت وثبتت وآتاها الله النصر والفتح .

اسماء بين الأحداث العظام فى الجزيرة العربية :

تفتحت عينا أسماء ونما وعيها ، والجزيرة العربيـــة تتمخض عن احداث جسام تحول مجرى التاريخ . وما كانت هذه الأحداث لتمـــر عليها الا لتصنع منها المادة البشرية الحية التى لا تقهر وهى تخوض مع ابيها غمار حرب اهلية عاتية لقى فيها المؤمنون من قريش اشد العذاب طيلة ثلاثة عشر عاما . حتى اذا اذن الله لمحمد أن يأمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة فرارا من الاضطهاد وأن يتجه الى يثرب ليقوم بالدعوة فى ارض حرة ويرأب الصدع ويؤلف بين قبائلها المتناثرة ، وقفت أســـماء كأبيها من ورائه موقف صدق وبذل واقتحام للمخاطر تخترق الصحراء ليلا لتأتى النبى وأباها بالطعام فى الغار ، حاملة لهما سفرة لم تجـــد ما تربطها بها ، فتشق نطاقها باثنين تعلق السفرة بواحد وتتمنطق بالآخر لتكنى بذات النطاقين ولتقوم بعد هذا بدور آخر أعدته لهـا الأقدار هو دور التضحية للمثل الأعلى .

اسماء ذات الراى والفطنة :

كانت أسماء تعلم ، ان اباها حين خرج مع النبى مهاجرا قد حمـل معه كل ماله ولكنها استطاعت اقناع جدها حين دخل عليهـــا وقد كف

بصره قائلا : « والله انى لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه » بأن اباها قد ترك لهم مالا كثيرا وهى تأخذ بيده لتضعها على أحجار وضعتها فى كوة فيقتنع ويقول وهو يتحسسها : لا بأس اذا ترك لكم كل هـــذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . . » .

اسماء الزوجة المثالية :

لم تشأ الحياة الا أن تمتحن اسماء بكفاح شاق آخر هو كفاح المراة المثالية حين تفرض عليها العيش لا فى اكناف الفقر والمسغبة فحسب ، بل الى جانب زوج شديد قاس . فقد تزوجها الزبير بن العوام وماله فى الأرض مال ولا مملوك غير فرسه . فكانت تعلف وتعجن وتقوم بأعبـــاء البيت دون تذمر الى جانب ذلك الجهاد الروحى المرهق وهى تحاول ان تطامن بحكمتها وصبرها من شدته فما تستطيع .

أسماء الراوية للحديث والشاعرة والمحسنة :

عرفت أسماء بأنها روت عن النبى « صلعم » ٥٨ حديثا وفى رواية ٥٦ حديثا . كما عرف عنها بأنها شاعرة ذات منطق وبيان وحصافة . ومن شعرها لمـا قتل ابنها عبد الله بن الزبير :

ليس لله محرم بعـــد قوم قتلوا بين زمزم والمقـــام
قتلتهم جفـــاة عك ولخم وصداء وحمـــير وجـــذام

وكانت أسماء ذات جود وكرم وعاطفـة انسانية عالية . لا تدخر شيئا للغد ولا تضن بمال تفك به رقبـــة أو تخفف من ضيق بائس ، تمرض المرضى وتعتق كل مملوك وتقول لأبنائها وبناتها « انفقوا او انفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضـــل ، فانكن ان انتظرتن الفضل لم تفضلن شيئا وان تصدقتن لم تجدن فقدا » .

الخلافة لعبد الله بن الزبير :

بويع عبد الله بن الزبير بالخلافة من على منابر أنحاء العالم الاسلامى ـ اثر وفاة زيد ـ ما عدا الشام ، ولم تأته الخلافة طوعا ، بل كان يسعى لها منذ عهد على وهو يعتقد انه احق بها منـــه ويعمل لهذا على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة ، وهو الســاعد الأيمن له والناطق بلسانه والجامع لـكلمته . ولتلك المـآرب العظام ، كانت خالتـــه عائشـــة ام المؤمنين تعده وتنشئه فى بيتها .

ولم تتطور دعوة عبد الله بن الزبير الى نفسه بالخلافة اذ كان حذرا الا بعد موت معاوية فدعا الى نفسه سـنة ٦٣ هـ . وصادفت دعوته تجاوبا ونجاحا عظيما فى بلاد العرب وقد مهدت لها عوامل أهمها :

تحول الخلافة من طريق الشورى والانتخاب الى طريق التعيين والوراثة ومن الحكم الجمهورى الى الحكم الملكى ، الى صفات خلقية ليزيد حطت من قدره ، ثم لوقوع تلك الحوادث العظام التى هزت العالم العربى الاسلامى كمقتل الحسين بن على وغزو مكة والمدينة ، فضلا عن تفرق كلمة افراد الأسرة الأموية .

ولكن الأمويين ما لبثوا أن وحدوا كلمتهم وتألبوا عليه واستطاعوا التأثير على قواده بالكتب والاستمالة بالمال والوعود بالمناصب وبمواطن الضعف حسبوها عليه كالبخل والغرور والتمسك بالرأى فانصرفوا عنه. ولقد بلغ الأمر بعبد الملك أن يكتب لأخيه مصعب بن الزبير طالبا منه أن يترك اخاه قائلا : « والله ان فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبدا : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل لزمه » .

ومع هذا يقول المؤرخون ان عبد الله بن الزبير لو غادر مكة آنذاك الى الشام ، لاستطاع أن يقوض دعائم الأسرة الأموية ، ولكنه آثر الاكتفاء بحكم جزيرة العرب على نشر سلطانه على الشام . وكان لابد أن يتغلب القوى ويبلغ الطموح غايته . فقد ترامت الأنباء : ان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، يتهيأ لسحق جيش مصعب بن الزبير ، ليتفرغ فيما بعد لأخيه عبد الله بقيادة الحجاج والاستيلاء على الحجاز.

الحجاج يحاصر مكة :

توالت النذر ، ودق نفير الحرب فى الحجاز ، والحجاج يزحف اليه بجيش كبير بعد سحقه لجيش مصعب بن الزبير — ويستولى على المدينة دون مقاومة تذكر ثم يسير الى مكة ويحاصرها للمرة الثانية ويرمى الكعبة بالمنجنيق ، ويستمر الحصار مطبقا عليها شهورا كادت ان تشرف معه على الهلاك جوعا وظمأ . كل هذا وعبد الله بن الزبير يؤدى دورا بطوليا فذا ، وقد تفرق عنه مناصروه الا القليل — اذ كان يحمل وحده على جيوش الشام حتى يجليهم عن مواقعهم ويردهم على اعقابهم ولكن الاقدار تضع أخيرا حدا لهذه الشجاعة ، وترميه بضرباتها وان بقيت له الأنفة وقوة الايمان .

أسماء تهب ابنها للموت دفاعا عن الحق والشرف :

وتطلع عبد الله أخيرا ليرى جنوده قد تخلوا عنـــه وهو يأبى دفع الرواتب وشراء المواد الحربية لهم على حين كان الحجاج يحاصر مـكة ويضرب الـكعبة . فجاء الى أمه يستشيرها وقد سدت أمامه المسالك بعد معركة دارت رحاها اياما ، وطال مداها مع خصم عنيد لا يرحم . فماذا تراها تصنع ؟ أتضن بحياة ابنها وليقال : ابت أسماء أن تهب ابنها للموت دفاعا عن الحق والشرف ، أبت السائرة فى وقدة الهجير بالزاد الى محمد أن تقدم بالدم الغالى ضريبتها الجديدة للدعوة ؟

أسماء رائدة التضحية العربية الـكبرى :

من غمرات المعارك ، يفيء البطل الى ساحة أمه ، عله يجد لديهـا الخلاص ، فلقد عرض عليه بنو أمية الأمان .. أفيستسلم وفى هـذا الذل والعار أم يقاتل حتى الموت للكرامة والمبدأ ؟ ويقترب منها عبد الله وتتشممه ، ــ وقد كف بصرها وترهف السمع اليه وهو يقول : « أماه . لم يبق معى الا اليسير ومن لا دفع عنده اكثر من صبر ساعة من النهار وقد اعطانى القوم ما اردت من الدنيا ، فما رايك ؟ ولقد خذلنى الناس وخذلنى اهل بيتى . فقالت له : عش كريما ، ومت كريمـا . والله انى لأرجو ان يكون عزائى فيك حسنا بعد ان تقدمتنى أو تقدمتك . فان فى نفسى جرحا حتى انظر الى ما يصير اليه امرك . فان كنت على حق تدعو اليه يا ولدى فامض عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية ، فيتلعبوا بك . وان قلت اننى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الأحرار ، ولا فعل من فيه خير . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل احسن مايقنع به يا بن الزبير . والله لضربة سيف فى عز أحب الى من ضربة سيف فى ذل » . ثم اقبلت عليـــه تشد من عزيمته وهو يخشى ان قتل ان يمثلوا به فتقول له : وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها ؟؟

ويمده هذا الايمان بروح جديدة وعزيمة جديدة يواجه بها المظائم على حين تتجه امه أسماء ببصرها الكليل نحو السماء فى نداء عميق هو اقرب الى الصلاة منه الى الدعاء : « اللهم ارحم ذاك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة وبره بأمه . اللهم انى سلمت فيـــه لأمرك ورضيت فيه لقضائك فأثبنى فى عبد الله ثواب الشاكرين . »

وداع واستشهاد :

ويدور بين الأم وابنها حوار طويل يتلاقيان فيه على الصبر والتضحية، وعبد الله يعرض على امه تمسكه بتلك المبادىء السامية التى نشأته عليها

ولم يتحول عنها طوال عمره فما عرف عن نفسه انه غدر فى أمان ،ومابلغه ظلم من عماله فرضى عنه ، ولم يكن شيء آثر عنده من رضا ربه . يقول لها هذا لترضى وتسلو عنه ، وتقول له الأم : صدقت يا بنى اتمم عليك بصيرتك ، وادن منى لأودعك فدنا منها وقبلها وعانقها ، ثم خرج فدفع أهل الشام وقاتل واستبسل ثم انكشف وأصحابه ولكنه عاد فقاتل قتالا لم يشهد مثله حتى سقط سقطة البطل مضرجا بدمه فى ساحة المعركة !

أما آن لهذا الفارس ان ينزل ؟

وسقط عبد الله شهيدا ، ومثلوا بجثته كما توقع وعلقوها . ولم يسمع من الأم الشجاعة اى معنى من معانى الضعف أو الضراعة لانزالها . بل قيل أن أسماء أتت الحجاج فقالوا لها ليس هو هنا .. قالت بكبرياء الجريح : فاذا جاء فقولوا له يأمر بهذه العظام أن تنزل .

ويقسم الحجاج الا ينزل جثة عبد الله حتى تشفع امه فيه فبقى سنة والأم الثاكلة متذرعة بصبرها وابائها لا ترجو ولا تشفع ولكنها حين مرت تحته توقفت وتحسسته ولكن ليفيض القلب الكبير بالألم الكبير وهى تقول : اما آن لهذا الفارس أن ينزل ؟

ونقل ما قالت الى الحجاج وقيل له ان الكلام معناه الشفاعة فيه فأنزله وحين غسل أصحابه اعضاءه ووضعوها بجانب بعض فى أكفانه قامت اسماء فصلت عليه . ولم يتخل عن اسماء منطقها البليغ حين سألها الحجاج : كيف رايتنى صنعت بابنك ؟

فقالت : افسدت عليه دنياه وافسد عليك آخرتك » ..

***

وتوفيت أسماء بمكة بعد أن قتل ابنها وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة ٧٣ هـ بعد أن حكم حوالى ـ سنوات تسع ـ ولها مائة سنة ولم يعطب لها سن ولم ينكر لها عقل ».

توفيت بعد ان هيأتها الأحداث لكفاح عظيم لم ينته من مشرق العمر حتى مغربه ولتخط بتضحيتها وسيرتها امثولة الشرف للمراة العربية وللأجيال . ولتثبت ان الموت فى سبيل المثل الأعلى انما هو سر الحياة للأمم والناظم لمشاعرها ووحدتها والمظهر للحوادث الجسام التى تغير وجه التاريخ .

هند بنت عتبة

من العربيات المبرزات ، وممن تمثلت فى روحهـا الصفات العربية الجاهلية ، وتركزت فى عاطفـة واحـدة هى الحقد للعـدو والانتصار لعشيرتها ، وممن أسهمن فى السياسة ورافقن الرجال الى المعارك . انها هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ـ أحد زعماء قريش الأشداء ـ وأم الخليفة معاوية الذى قبض على زمام الخلافة ناقلا مقرها من المدينة الى دمشق ، وفاتحا لدور الحكم الأموى العظيم ..

***

كانت هند حسناء تفتن القلوب ، وذات ميزات شخصية فاقت بها نساء عصرها ، وأنزلتهـا منزلة الزعامة من قريش : من ذكاء لامع وقوة بديهة وفصاحة لسان، ومقدرة على الخطابة والتحدث الى الجموع ــ تلك الموهبة الساطعة التى اعتمد عليها الناس آن ذاك فى السياسة ، وجعلوها فرضا من فروض الدعوة الى الدين ، وركيزة للصعود الى المجـد ، والتى ازدهرت فيما بعد فى العصر الأموى ــ كما كانت هند ، تنظم الشعـر للفخر وتأريث نار الانتقام وشحذ الهمم ، وفى الطليعة من نساء قريش ، تتقدمهن هازجة بأهازيج الحرب ، مثيرة لعصبيات قومها ، ضاربة المثل فى قسوتها وشدتها على أعدائها ..

ولعل هذه الأبيات من الشعر التى كانت تدلل بها ابنها معـاوية ، وهو فى تمام قدرته على الثأر من قريش ، قريش هذه التى أرضعت هندا لتنشئته واعداده لحمل الأعباء الجسام ، وخلق روح الطموح والرجولة

والعظمة فيه ليصبح المؤسس الأول للدولة الأموية الكبرى ، وكأنها تصبها في قلبه عزما ، وفى خفاياه عزة وسجايا تؤهله للسيادة والقيادة .

ان بنى معـــــرق كـــــريم
محبب فى أهـــــله حلـــيم

صـــــخر بنى فهـــر به زعيم
لا يخـــلف الظـــن ولا يـــريم

***

فى واقعة أحد ، رافقت هند قومها مع رفيقات لها من قريش . وكان أمامهن فى الجهـــة المقابلة من جيش المسلمين فاطمة الزهراء بنت محمد « صلعم » مع عدد من نساء الأنصار يضمدن الجراح ويضربن ويغنين على الدفوف لتثبيت القلوب وشد الهمم ، وهنـــد من ناحيتها الأخرى تلهب قلوب قومها للحرب بالنداء ؟؟ .

« ويها » بنى عبـــد الدار ، ويها حمـاة الديار ، ضربا بكل بتار ثم تنشد معهن مخاطبات لقريش ، مثيرات لهممهم نشيدهن المعروف :

نحن بنـــات طـــارق
نمشى عـــلى النمـــارق

ان تقبـــلوا نعـــانق
ونفـــرش النمـــارق

أو تدبـــروا نفـــارق
فـــراق غـــير وامق

وتنتهى معركة أحد ، ويستشهد فيها حمزة عم النبى . وتأبى هنـد الضاربة فى الجاهلية ، الا أن تشفى غليلها من الشهيد لتنتقم لأبيها الذى قتل يوم بدر ولمن قتل من قومها فتبقر بطنه ، وتلوك كبده وهى تقول :

نحن جزينـــاكم بيـــوم بدر
والحرب بعـــد الحرب ذات سعر

ما كان لى عن عتبـــة من صـــبر
ولا عن أخى وعمـــه وبـــكرى

ولكن الدائرة تدور على قريش والمشركين يوم بدر ويدخل محمد مكة فاتحا منتصرا .. وتمثل هند بين يدى الرسول مع رفيقات لها لتبايعه ،

فيعاتبها برفق على تمثيلها بعمه حمزة ، فتقول له : أنبى وحقود ؟؟ ولم يشأ النبى أن يرد على هند أو ينتقم من قومها لما لقيه منهم من اضطهاد ، وهو فى تمام قدرته على الثأر من قريش ، قريش هذه التى أرضعت هندا الحقد ، وما عرفته فى جاهليتها الا ضراوة فى الدماء ، وظلمات فى النفوس تطبق على ظلمات ، وما عرف هذا النبى العظيم فى عقيدته السمحاء الا محبة تغلب الحاقدين ومغفرة تسع المذنبين ، بل كان رده الجميل غفرانا تسامى عن الحقد الى أفق التسامح والعطاء ، وليضم فى قلبه بهذا الغفران كل القلوب ، حين قال لقريش : وعيناه تتنديان بالدموع ليثبت أن الاسلام ينسخ ما قبله من ذنوب :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ، أقول لكم ما قاله أخى يوسـف لأخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » بل ليتم مع آية الفتح ، آية للمحبة ملكت الناس ، وهو يمسح اساءة أعدائه بعفو القادر حين يعلن :

« ان كل من دخل دار أبى سفيان ـ الد أعدائه ـ فهو آمن » .

***

وبعد لئن كانت هند من أشد قريش ايذاء على النبى والمسلمين قبل الفتح ، فقد أصبحت حين دخلت مع زوجها وأبنائها وقومها ، الاسـلام ، من أعظم انصاره وقواه . ولئن لم يكن لهند فى التاريخ العربى من شأن وخطر ، الا أنها بثت فى ابنها معـاوية تلك الصفات التى أهلته للقيادة وليكون فى سياسته وطريقة حكمه أقـدر من ساس وحكم امبراطورية عظمى ، فى حزم لا ينقصه لين . وهو يقول موضحا تلك السياسة المرنة القادرة :

« اننى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضـع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » .

ويجيب حين سئل كيف : « كنت اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتهـا » .

أو حين يفسر شعاره النفسى المحكم لبلوغ غاياته :

« عجبت لمن يطلب أمرا بالغلبة،وهو يقدر عليه بالحجة ، ولمن يطلبه بالعنف ، وهو يقدر عليه باللطف » .

أجل ، لئن لم يكن لهند الا أنها كانت أما شديدة الحزم والعزم لتقوم بهما ذلك الخليفة العربي – وهو حدث – ولتكون سنادا وملهما لهذا الذى وسع رقعة الفتوحات العربية ، التىامتدت الى شمال افريقية بما فيها المغرب الأوسط بأجمعه ، وساس الدولة الأموية سياسة رقت بها الى أعلى الذرى ، وأسطوله العظيم يجوب البحر المتوسـط مستوليا على جزره ومحاصرا للقسطنطينية ، ولتصل بعده فتوح بنى أميـة وقوادها العظام حتى حدود الصين ، وليقول التاريخ :

« ان هذا الذى ثبت أركان الخلافة العربية ، والذى أصبح حاكما لتلك الامبراطورية العظمى ، والتى انضوت تحت لوائه الظافر فى وحدة سياسية روحية كبرى ، كان من ورائه امرأة قوية ما فتئت تهزج له بأهازيج العلا طفلا – وبأغانى القوة رجلا ، ليبلغ القدر الذى يريده وليكون فصـلا من كتاب المجد العربى ما ينفك مصدرا من مصادر القوى ومواقع الالهام فى تاريخ العرب ، فى كل عصر ، وفى كل جيل . لكفاها بهذا ذكرا وحياة . غير أن هندا تشترك فى يوم اليرموك كاحدى البطلات العربيات اللواتى جاهدن مع الرجال فى تلك المعركة الخالدة » .

وليذكر التاريخ قولها حين قال لها قائل وهى تحمل على يديها طفلها معاوية : ان هذا سيسودقومه ، فأجابت : «ثكلته أمه ان لم يسد غير قومه».

وتشترك هند مع رفيقاتها العربيات فى معركة اليرموك ويكون لهـا معهن أروع صفحة فى أعظم معركة حولت وجه التاريخ العربى ..

***

الخيزران زوج الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد

من العربيات اللواتى تألقن فى أفق الحضارة العربية وكان لهن أثرهن فى السياسة والملك ، الخيزران زوج الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد ٠

ولم تشتهر الخيزران فى السياسة وخدمة المجتمع فحسب ، بل كان لها الأثر القوى العميق فى زوجها الخليفة وولديها اللذين تربعا من بعده على عرش بغداد أيضا ، وهما الهادى والرشيد ٠

ولم تكن الخيزران امرأة عادية ، بل كان لها مؤهلاتها العالية فى الحكم وفى التـــأثير فى الشعب ، وأثرها ونفوذها يمتـــد الى ثلاثة خلفاء ، وامبراطورية عربية واسعة ٠

ولقد عرف عن الخيزران ، انها كانت عاقلة متقدة الذكاء واســـعة المدارك ، ضليعة فى فن السياسة ، شديدة العطف والرأفة على المحتاجين والمعذبين ٠ وفى استجلاء سيرتها الحافلة ، نراها تكرس نفسها وجهودها لقضاء حاجات النـــاس الذين كانوا يهرعون اليها من كافة أنحـــاء تلك الامبراطورية العربية الزاهرة ٠

وكان الأمراء والشعراء وأصحاب الحوائج يؤمون مجلسها ، ويقفون على بابها فتجالسهم وتقضى حوائجهم بنفوذها العظيم على زوجها ٠ وكانت عدا هـــذا كريمة طيبة تعطف على البائسين المحرومين ، الى درجة كاد الشعب أن يرفعها الى درجة العبادة ٠

ومن حسناتها ، انها جعلت زوجها المهدى يرد الى بنى أمية أملاكهم التى حبسها عنهم ، ويعاملهم بالعفو والرأفة ، كما كانت ملجأ لمن أذلهم الدهر ، ولو كانوا من خصومها ٠

ومما يؤثر عنهـــا : ان مزينة ــ امرأة مروان بن الحكم وفدت عليها ذات يوم تشكو رقة حالها وغدر الزمان بها · فأفردت لها جناحا خاصـــا بالقصر لتقيم فيه الى جانبها ، دون أن تفرق بينها وبين نساء بنى هاشم · وكانت الخيزران تشارك زوجها فى تسيير دفة السياسة حتى اذا ما مات وأرادت أن يبقى لها هذا النفوذ ، فى عهد ابنها الخليفة الهادى ، رفض منها هذا التدخل بكل شدة · وأثر عليها هذا الضغط لرغباتها ، فأحست بمرارة شديدة وخاصة حين أعرض الهادى عنها وقد نقل اليه أحد أعوانه انها تفضل عليه شقيقه الرشيد · غير أنه حين مرض تذكرها ، تذكر صدر تلك الأم الحنون فاستدعاها اليه ثم قال لها :

« أنا هالك فى هذه الليلة وفيها يتولى الملك أخى هارون الرشيد · وقد كنت امرتك بأشـــياء ونهيتك عن اخرى مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك · ولم أكن بك عاقا ، بل كنت صائنا ، وبرا واصلا ·· ثم قضى نحبه وهو يضع يد أمه الحنون على صدره ·

ولقد لعبت الخيزران دورا هاما على مسرح السياسة العربية آنذاك دون شك ·· ولكن مهما كان من حكم المؤرخين عليها فلقد كان لها أثرها البارز فى تلك السياسة وعظمة ذلك الدور للخلافة العباسية ·

زنوبيـــا
ملكة البـــــادية

تناهت الأنباء الى زنوبيا ـ ملكة تدمر العربية الجميلة ـ أن زوجها الملك العربى « اذينه » ونائب الامبراطور الرومانى قد اغتيل ، وان لابن أخيها صلة بالمؤامرة التى دبرتها روما ٠

أنباء حطت عليها دون رحمة ، لتحطم قلبها ، وتبدد أحلامها ، فماذا تراها الآن صـــانعة ، وها هى ذى دقات الخطر تطرق بابهـــا بعنف ٠ اتستسلم ، وفى هـــذا ضياع ملك واستعباد وأسر ، ام تطوى حزنها وكبرياءها الجريح ، لتحفظ لابنها العرش ، قبل أن يتداعى تحتها ويطوح بها عبر دروب العبودية والموت .. ؟

لا ٠ لن تخضع الملكة العربية للرومان ، بل ستقاوم بكل مافيها من عزة واباء..ولكن كيف دبرت روما اغتيال زوجها ، ولما يمض زمن طويل على انتصاره لها على الفرس ، وانقاذه لامبراطورها «فاليران» من أسرهم ؟ أو لم يهزم زوجهـــا اذينه الفرس على ضفاف الفرات فى جيش كبير من السوريين وقبائل البادية ؟ أو لم يكافئه الامبراطور الرومانى الجـــديد « غالينوس » بلقب زعيم الشرق لهذا الانتصـــار ، ويعترف به كنائب للامبراطور على القسم الشرقى من الامبراطورية ٠٠؟ ألا كيف تغدر روما بالبطل العربى الشجاع ، الذى امتاز بالوفاء والفضائل والكرم ٠٠؟

ذلك مالم تستطع زنوبيا أن تجد له جوابا ، والعديد من هذه الأسئلة تنثال على خواطرها ، لتثير مشاعرها ، وتهزها هزا عنيفا ٠٠

وتستفيق زنوبيا من حيرتها الحائرة ، لترى نفسها فى موقف ما احراه أن يعصف بأقوى العزائم ، وهذه تدمر تقف الآن على مفترق الطرق ،

بعد أن شاع في ربوعها السلام ، وأصبحت الآن أكثر المـــدائن ثروة ، وأعظمها حضارة بموقعها الهام كمحطة للقوافل التى تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب وقـــد نمت فيها الصناعة الوطنية وازدهرت الى جانب التجـــارة والزراعة والفنون ، وها هى ذى ترتقى بفن النحت ـ كتاب التاريخ الخالد ـ الى الذروة ، فترتفع فيهـــا الأعمدة وتقام التماثيل على طول الشوارع ، وتظللها راية السادة والحرية. ترى ماذا تخبىء لها الأقدار الآن وها هى ذى اليوم تلوح فى سمائها الأحداث الجسام ، وهـــل تستطيع مملكة الصحراء أن تحافظ على سيادتها ..؟ لقد اضطرت تدمر للاعتراف بسيادة روما مرغمة حقا ، وان لم يكن هذا الاعتراف الا شكليا ، ولم يتعد أكثر من المراسيم الامبراطورية التى تتصل برسوم الجمارك وما اليها . بيـــد انها لم تتخل عن استقلالها وحرية تصرفها كدولة مستقلة . أتراها الآن تستسلم لروما بعد أن قتلت ملكها غيلة ، وهل تستطيع زنوبيا أن تؤمن لابنها « وهب اللات » ملك أبيه ، ويستقر له ولها الجاه والسلطان ، ولبلدهما الحرية والسلام ..؟ أجل ، فلتطو زنوبيا الآن جراحها فى الأعماق ، وهناك أمر جلل عليها أن تتغلب عليه ، ولتحن راسها للنازلات كالأقوياء حتى تمر .. وليكن قرارها الذى لا رجعة فيه : سوف لا تستسلم .. سوف تحكم زنوبيا تدمر .. سوف تقـــاوم روما .. وسيكون لابنها لقب ملك الملوك وســـوف تلقب هى بأوغستا » ..

كانت زنوبيـــا أو « ابنة العطية » كمـــا تذكرها الكتابات الأثرية التدمرية ، حنطية اللون ، رائعة الجمال ، قوية البنية ، شديدة الحيوية والنشاط ، مولعة كزوجها « أذينه » بالصيد وركوب الخيل . ولم تكن أقل منه مراسا ، وان كانت أعظم طموحا ..

وكان بلاطها يتبع نظام الأكاسرة فى الفخامة والأساليب ، وحين كانت تمر أمام حاشيتها كانت تخر أمامها ساجدة محيية لها على أسلوب الفرس. وفى المعارك ، كانت تخترق الصفوف وعلى رأسها خوذة تشع بالجواهر ، مرتدية ثوبا من الارجوان موشى باللآلىء والأحجار الكريمة ، مشدودا عند الخصر متقلدة سيفها تاركة أحد ذراعيها عاريا حتى الكتف مقلدة فى هذا أبطال اليونان والرومان ، فتشتد حماسة جنودها ، ويقبلون على القتال ، مقتحمين الحصون ، فاتحين البلاد ، خائضين فى سبيلها الغمرات حتى اتسعت الدولة التدمرية فى عهدها ، وبسطت سلطانها على كثير من الأقطار اذ شملت سوريا وجزءا من آسيا الصغرى ، وشمال جزيرة العرب كمـــا امتدت الى مجاهل السودان .

واستقامت لزنوبيا عدا هذه المقومات الشخصية ، والعظمة فى الملك ثقافة واسعة • وكانت ترعى الثقافة اليونانية وتوطد لها بين الشعب • كما كانت تحسن عدة لغات منها : الآرامية والفارسية واليونانية وبعض اللاتينية ولهجات القبائل • وكان مستشارها فى البلاط « الفيلسوف لونجيلوس » أعظم رجال الفكر التدمرى ، كما كان معلما لها ، ومرشدا وموجها فى الأمور الجسام •

فى عام ١٢٧٠م ، جردت زنوبيا جيشا الى مصر بلغ عدده سبعين ألف رجل بقيادة قائدها زبده الذى خلع الحاكم المغتصب لها واقام حامية فى الاسكندرية وتوحد زنوبيا بعد هذا بين القطرين السورى والمصرى وينضم الى جيشها جنود من مصر وسيناء ثم نراها تخطو خطوات أشد خطرا فى منافسة روما وتحديها ، حين سكت النقود وعليها منقوش لأول مرة رأس ابنها وهب اللات ، بجانب راس امبراطور الرومان «اورليان» . فلقد وجدت زنوبيا أن لديها القوة للوقوف أمام الامبراطورية الرومانية ، ولاعلان حق ابنها فى ملكه الشرعى وان هذا الحق يجب أن يعلن ، ويتخذ له لقب ملك الملوك كما ذكرنا ـ وتتخذ أمه لقب « أوغستا » • كما يكتب أسماهما على أحجار المسافات فى سوريا •

ويقام فى شارع الأعمدة الكبير تمثال للملكة ـ هذا التمثال ـ الذى لا تزال آثار الكتابة منقوشة عليه بهذه السطور : الى سيدتهم « سبتيميا زنوبيا » أكثر الملكات شهرة وتقوى . كما ينتصب بالقرب منه تمثال آخر يحمل هذه الكتابة الأثرية التدمرية : تمثال « سبتيموس اذينه » : ملك الملوك ، ومجدد الشرق •

***

ولكن هذا الموقف المناهض للامبراطورية الرومانية العظيمة لابد أن يجلب لتدمر ـ المملكة العربية ـ الخطر والدمار • فلابد اذن من الاهبة والاعداد والتقدم لمجابهة ما يتوقع واحتلال المواقع العسكرية • وهنا يتوغل القائدان التدمريان الباسلان : زبده وزباى بقواتهما داخل آسيا الصغرى ويقيما الحاميات باتجاه الشمال الغربى حتى أنقرة • وتعسكر جيوش زنوبيا فى تلك الأنحاء كرمز لاتساع مملكة تدمر وسطوتها • وبهذا استطاعت الملكة العربية تشكيل امبراطورية واسعة انتزعتها من الرومان ، امبراطورية عربية قوية واسعة الأرجاء تقدمت امبراطورية الأمويين ببضعة قرون ••

ولكن ، هل تستطيع هذه الامبراطورية الصمود أمام أعدائها لزمن طويل ؟ كلا .. فها هو ذا الامبراطور الرومانى العظيم الباس اورليان

يتحرك بجيش قوي ويخضع الحاميات التدمرية في آسيا الصغرى ، ثم يتابع السير لاحتلال سوريا ، فتسقط حمص والمدن بعد مقاومة ضئيلة ، وتنسحب زنوبيا وقائدها زبده الى تدمر ، ولم تستطع قواتها الوقوف أمام الجيوش الرومانية المتفوقة بعددها وعددها ، وتصبح طرق البادية المؤدية الى العاصمة مفتوحة أمام العدو ..

ويحاصر أورليان مدينة تدمر تعززه قوات مصرية . وتقاوم زنوبيا ويبدي التدمريون أعظم ضروب البسالة ويقذفون أعـــداءهم بالحجارة والنبال وكرات النار . ويشتد بين الفريقين القتال ولكن زنوبيا لم تتلق أية نجدة من حلفائها حتى من فارس .. وتستبسل الملكة الشجاعة مع جيشها للدفاع عن بلادها ، أمام جيوش تفوق جيشها قوة وعددا عبثا . ويعرض أورليان عليهـــا شروط الاستسلام مترفقا بهـــا ولكنها ترفض التسليم . فان هـــذا يعني الأسر والعبودية لها ولشـــعبها ، وهـــذا مالا تقبله له ..

ولكنها تجد أخيرا ، انه لا فائدة من المقاومة ولابد لها من انقاذ نفسها من الأسر بالهرب . فتركب ليلا على هجين سريع مخترقة الصحراء. ولكن قوات العدو الملاحقة لها تدركها وهي تحاول عبور الفرات فتقودها مكبلة في الأغلال ، وكان ابنها وهب اللات ايضا قد سقط سقطة الشرف وهو يدافع عن مملكته .

***

وتستســـلم تدمر ، ليجردها الغزاة الرومان من روائعهـــا الفنيـــة ومتاحفها ولينقلوها الى روما لتزين متاحفها . أما السكان فيفرضون عليهم غرامة ، كما يعينون على تدمر حاكما رومانيا .

***

ولكن تدمر البـــلدة العربية الأبية ، لا تخضع بسهولة فما يـــكاد الامبراطور الروماني يغادرها الى بلاده حتى تنشب فيهـــا ثورة عاتية ، تغتال حاكمها الروماني ، وتتغلب على حاميتها ، وليعود الغزاة اليهـــا ثانية وليعملوا السيف في سكانها ويهدموها ..

ويسوق الامبراطور أورليان حين دخوله الى روما الملكة العربية الأسيرة زنوبيا أمام موكبه ، مقيدة بسلاسل من ذهب ، ليـــدل على مبلغ قوته ، وليعطي لموكبه عزة النصر في قاعدة ملكه ..

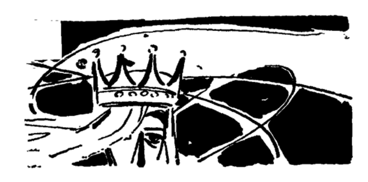
***

هنا تتضارب الروايات فى مصير الملـكة الأسيرة فمنها ما تقول : ان الملكة قد أحيطت بالرعاية وقدم لها قصر فى روما استقرت فيه ، كما تزوجت من رومانى وانجبت أولادا . ومنهـــا مايذكر : انها اعيـــدت الى موطنها تدمر ، اكبارا ، لمكانتها فى نفوس قاهريها .

***

ولكن زنوبيا تبقى أبدا رمزا للبطولة والحرية والأنفة العربية ، وملكة لمملكة تدمر العظيمة التى أثرت بحضارتها وفنها المعمارى الخالد ، فى الفن البيزنطى ملقية من خلال هـــذا الفن نورا كاشفا على بداية التأثيرات الشرقية على الرسوم الرومانية اليونانية كما تظل على مدى الأجيـــال المنار المشع للعالم عن حضارة العرب فى النحت وعظمة المعمار..





شجرة الدر

أمير فى المنفى :

ترى هل الحياة عصية أم انها لا تستسلم بسهولة الا للمكافحين ، وهل يسأل الحر عطاياها دون ان يندفع فى تيارها مغامرا ، وهل تمنح الشعور بها ، وبدفئها ، وعزتها الا لمن يستطيع التغلب عليها ، ودون أن تتنزى من اقدامه الدماء ؟؟

الا هل كانت هذه الخواطر ، تلح على الأمير المنفى ــ نجم الدين ــ امير الموصل ــ منذ ان ابعد عن القاهرة بوشاية من زوج ابيه ، لتضمن لابنها سيف الدين العرش ؟

لم تر هذا الأمير يقنع عن عرش الأيوبيين بهذه البضع عشرات من المماليك ، وبهذا السجن عن ديار النيل ومغانيه ؟؟ لا . انه لن يخضع وها هو يضع خطته للعودة وسيكون له العرش بغير منازع اليس هو صاحب الحق الأول فيه ؟؟

الجميلة المشردة :

وتلفت الأمير الى الجند الذين وقفوا امامه طويلا دون ان تأخذهم الجراة للتحدث اليه بشأن الفتاة التى التقطوها ــ وهم فى جولتهم حول الحصن ــ حينما كانت تستند على قارعة الطريق دون أن يعرفوا من أين اتت اذ آثرت الفتاة الصمت .

تلفت ، ليجد أمامه فتاة ذات جمال ساحر ، وذكاء وحصافة .. وعرف فيما بعد انها ربيت فى قصر الملك بدر الدين لؤلؤ ــ صاحب

الموصل ــ الذى اتاح لها تلك الثقافة الرفيعة قبل أن يستقر بها المطاف فى قصر الأمير فقد كانت تحسن الكتابة والموسيقى والغناء . كما عرف انها كانت فى حجر السيدة فاطمة خاتون بنت طغرل السلجوقى ملكة تبريز، تلك الملكة التى استقلت بالحكم عن زوجها ، حين غرق فى اللهو ، والتى حالفت السلطان جلال الدين وتزوجته وصاحبته فى المعارك فى حرب المغول التى مات بها وتقوض ملكه .. تلك هى قصة شجرة الدر قبل ان تقذف بها الأقدار الى رحاب الأمير ..

نحو المآرب العظام والسيادة :

وأصبح للفتاة مكانة أثيرة لدى الأمير وجنده لما كان لها من فطنة وبراعة فى تدبير الأمور . وتطلعت كما تطلع الأمير نجم الدين للملك العظيم فى القاهرة . فانبرت تنمى روح الطموح فى نفس الأمير ، وغذتها روحا وفنا والهاما . وكان لها فى اذكاء هذه المآرب العظام أساليب سياسية ، وأخرى فنية .. فما كان غناؤها وضربها على أوتار العود للأمير ، الا حنينا مشجيا وتجاوبا مع الأمانى الكبار والمجد فى ارض النيل ..

فى الطريق الى مصر :

ولكن هل اطمأن الملك الكامل،حين استخلف ولده العادل سيف الدين على عرش مصر ، وحين أقصى ولده الصالح نجم الدين ؟ . لا . فلم تكد هذه الأنباء تنتشر فى القاهرة حتى تمرد أمراء الشام ، على حين ولده نجم الدين يدبر اموره من منفاه فى حصن كيفا خفية كما رأينا ، والى جانبه المرأة الاريبة شجرة الدر ، زوجته وأم ولده السلطان خليل ــ تبث فيه من روحها وطموحها للملك والسلطان ما يفيض على قلبه قوة ويجدد أمانيه فى عرش مصر ، بل لتتاح لها ــ بمعنى أدق ــ الوصول الى الملك والتحكم بالملايين .

وتدور المقادير ، حين يباغت الموت الملك الكامل بعد أن ظل يكافح الفتنة التى اشعلها امراء الشام الأيوبيين طويلا . ويستأثر العادل سيف الدين بالملك وبكل ما فى خزائن ابيه من كنوز ومال ..

وتحل الساعة لشجرة الدر لدفع أميرها للأمام لتحقيق مطامحه واستعادة حقه . وتتوالى عليه الرسائل من مصر تدعوه للقدوم . فيزحف من المشرق ليستخلص لنفسه العرش . ويسير فى ركابه جنوده الأبطال: بيبرس وايبك وقلاوون وآق طاى ، ثم شجرة الدر ملهمته ومسيرته . ولكنه يقع ومن معه أسيرا فى كمين أعده له بدر الدين انتقاما منه لثأر قديم .

شجرة الدر تحرر الأمير من سجنه :

ويفت في عضد الأمير نجم الدين ويتولاه اليأس . ولكن شجرة الدر ، تسارع الى تشجيعه وشد عزيمته . ومن ثم نراها تتصل سرا بالأمير حسام الدين ـ مقدم الخوارزمية ـ فيهب لنجدتهم ، ويتحرر الأمير وصحبه ، ليستأنف طريقه مع هذا الجيش المنقذ .

ويصل الملك الصالح الى دمشق . وتتوافد عليه الرسل من مصر ليتسلم العرش بدل أخيه الذى ساءت سيرته واسرف فى مباذله وفى اضطهاد الناس ، واقصاء امراء ابيه عن السلطة .

سجن جديد واسر جديد :

ويلبى الصالح النداء شاخصا الى مصر مع ابنه الطفل وشجرةالدر وانصاره ، ولكن ليقع ثانية فى الأسر بتدبير الأمير الأيوبى : الناصر بن داود ـ امير الكرك والشوبك الطامع بعرش الشام وابن عم نجم الدين وزوج بنت الملك الكامل ـ ويلقى بالأمير وصحبه فى القلعة لا حول له ولا طول. ويسمع العادل بأسر اخيه ، فيحاول تسلمه من الناصر واعدا اياه بعرش الشام .

شجرة الدر تخلص الأمير ثانية من الأسر :

هنا يجيء الدور الثانى لشجرة الدر لخلاص الأمير من الأسر . انها لن تستسلم ولن تلقى بسلاحها . وهى بعد عليمة بمواطن قوتها . فلتبدأ اذن من النقطة القوية ، من الطموح العاتى للملك ، فتقابل عاشور خاتون زوج الناصر ، موحية لها بأن العادل لن يعطى لزوجها عرش الشام اذ ليس له عليه سلطان ، ومازال تحت حكم الصالح اسماعيل وان الصالح هوالذى يستطيع ان يفى له بهذا الوعد . اذا فك أسره .

وتسر الزوجة الى زوجها بما قالت شجرة الدر ، وبما قطعت لها من عهد فيطلق سراحه ليأخذ طريقه الى مصر لاستخلاص العرش من اخيه العادل .

شجرة الدر على عرش مصر :

الصالح يجلس الآن على عرش مصر وقد دانت له الأمور . وشجرة الدر تقاسمه المجد ، والملايين تهتف الآن باسم ام خليل ـ زوج الملك الصالح ايوب الى جانب اسمه والكفاح المثير يتحول الى لحن قوى من الحان الانتصار .. اما الناصر فلم يظفر بعرش الشام ـ وقد فسد

ما بينه وبين الصالح لما صنع ـ بل ليعود كسيرا حزينـــا الى امارته الصغيرة فى البلقاء ..

شجرة الدر تعمل لتاليف جيش من المماليك لدعم الملك :

ترى هل يستطيع هذا الملك الوقوف امام أعدائه دون أن يكون له سياج يحميه ، وحوله الطامحون من الأكراد وابناء عمومته ، ومن أولئك الذين لا يتورعون من استنصار الصليبيين لكسر شوكته ؟؟ لا . اذن ليكن للصالح جيش من المماليك الأشداء يثبت به دعائم ملكه . وارادت شجرة الدر وكانت ارادتها هى النافذة . فاذا الصالح يستمع للرأى الحصيف ، فيؤلف جيشا ذا عدة وعدد من المماليك وتبرز منه أسماء ذات شأن فى التاريخ عظيم كالظاهر بيبرس وقلاوون وايبك الخ ...

احزان وولاية لشجرة الدر :

ترى مم تنشأ الحوادث التى تؤلف التاريخ ؟ أليس منهـا الغزوات والأديان ، كما أن منها الموت ؟؟

اجل ، ففى الوقت الذى تثبت فيه دعائم الدولة بقـــوة الجيش الجديد ، وتطفأ الفتنة ، التى كان يثيرها امراء الأيوبيين فى الشام، وفلول الصليبيين فى الساحل ، يجيء الموت ليسلب قرة عين وأعز أمانى شجرة الدر فى ابنها الملك الطفل المنصور خليل . وافعم قلبها الحزن .. ومن ورائه قلق آخر يهدد العزمان ويقض المضاجع . اتخسر شجرة الدر هذا الملك الذى كافحت لأجله ؟؟ الا أن مقدارتها اليوم بيد القدر . ولكن ، ألم تصطدم من قبل بمثل هذه الأخطار ثم استطاعت بحكمتـها أن تقضى فى عظائمها ..؟؟

ولاحت فى خاطرها فكرة .. ويا للفكرة ؟ او لم تكن الأفكار هى التى تدير العالم ؟؟ وشاعت السكينة فى قلبها والفكرة فى ذهنـــها تلتمع لتتساقط فى قلبها المضطرم كالندى على العشب ، اثر هجير يوم لافح.

وجاء الملك الصالح ليواسى الملكة الثاكلة لوحيدها ، فصـــارحته بمخاوفها ، وبأن حزنها العظيم ليس على ابنها بل خوفا من أن ينفرط ، عقد الدولة ، وولده غياث الدين ليس له قدرة على حمل الأعباء ومن ثم نراها تلح عليه ليستخلف واحدا قويا يكون قادرا على صيانة ذلك التراث الماجد وأن يعهد فى هذا الى احد من اهله .. وهنـا تبلغ شجرة الدر ما تريد ، والملك يقول لها فى حزن وقلق ظاهر : « قد عهدت اليـــك يا شجرة الدر ان تسلمى للخليفة من بعدى ، فلا يتنـازعها الأمراء حتى تذهب قوتها ، وتطؤها خيل الصليبيين . »

الى الشام : شجرة الدر وبيبرس فى المقدمة :

كان لابد للملك الصالح من الخروج لاخماد الفتنة التى اثارهااصحاب المطامع فى الشام . وسار الى الشام وشجرة الدر الى جانبه مشيرة له ومشجعة ، بعد أن أعدت عدتها للخروج بجيش من المماليك على راسهم الظاهر بيبرس .. وانتصر الصالح . ولكن رسالة تجىء من مصر محملة بنبأ خطير : ان الصليبيين بطريقهم من قبرص الى دمياط ــ وقد جمعوا جموعهم بعد الهزائم ــ على راس جيش لجب .

شجرة الدر تنادى بالدفاع عن مصر وقتال الصليبيين :

لم تجزع شجرة الدر ولم تتزلزل للنبأ بل اشارت على الملك الصالح بمنازلة الأعداء ، وهى تبث فيه القوة والايمـان بالنصر . وتلهب قلوب الجيش بنار الحماسة . وتتوالى الاخبار : ان لويس التاسع ــ ملك فرنسا ــ فى طريقه الى مصر مبحرا على الف وثمانمائة سفينة . وتصل طلائعه وتحاصر دمياط ويطول الحصار على المدينة الباسلة .

شجرة الدر تحفظ وحدة الدولة :

قد يستطيع المرء مكافحة العديد من المتاعب والمخاطر ، كالكراهيـة والظلم والاضطهاد والحرب . بيد ان هناك مخاطر لا تقهر كالموت . وهكذا فى ادق الأوقات يموت الملك . وهنا تبدو هذه الحادثة مماثلة للخطر الماثل فى العدو الموجود على الساحل ، والمستولى على دمياط . فلو انها أعلنت موت الملك لخسرت مع الرجل ــ الزوج ــ لا العرش فحسب ، بل النصر . فماذا تصنع ؟؟ هناك احداث قاصمة يتعرض لها الانسان، ولابد له حيالها من اطلاق كل ما يملك من قوى للتغلب عليها . ولتكن تلك القوى مظهرا لشخصيته ولكيانه وحكمته بأجمعها . واطلقت شجرة الدر كل ما تملك من قوى ، قوى تجسدت فيها شخصيتها وكيانها ، وحكمتها ومسئوليتها، حين أرادت وكان لها ما تريد :

فقد قررت الا تذيع خبـر موت الملك .. وأن تحكم باسـم ابنها خليل . ولن يعلم الطامحون بالملك هؤلاء الأمراء الذين يتلقون الأوامر من وراء حجاب . وانها بهذا التدبير الحكيم ايضا ، تسـتطيع تجنب الفتن وتبديد وحدة الجيش والشعب .. وقال لها الأمير فخر الدين ــ وكانت قد أسرت اليـه بالأمر : انها تستطيع أن تحفظ وحـدة الدولة التى عاصرت احداثها ، وكانت من وراء الملك الراحل فى كل معضـلة ، وكل عظيمة . ولن تكون أول بادرة فى التاريخ أن تحكم امرأة . فهناك كانت بنت الملك العادل صفية خاتون تحكم مملكة حلب . وفى الهنـد ، الم تستقل السلطانة مرضية ــ ملكة دهلى ــ بالملك لبضع سنين ؟؟

ووافقت شـــجرة الدر . واخفت نبأ موت الملك . واتخذت الأمير فخر الدين كبيرا لامنائها . وظلت الرسوم فى القصر الملكى تسير سيرها العادى . فترفع الكتب والأحكام الى القصر . وتخرج وعليها توقيعه . ولكن الأمر لم يلبث أن وضح . واجمع التركمانية على الدعوة لابن مولاهم توران شاه ، ليتسلم عرش أبيه ، ولئلا يستأثر المماليك بالملك . فأوفدوا اليه أحدهم ــ آق طاى ــ على رأس وفد الأمراء ، ومعه رسالة من الأمير حسام نائب الملك .

شجرة الدر تبايع الخليفة الجديد بعد النصر :

وهنا تبدو حكمة شجرة الدر ونظرتها العميقة لجلائل الأمور وحسن تدبيرها فقد رات انه على ما فى توران شاه من الطيش وضعف الرأى غير انها لن تستطيع أن تخالف ما أجمع عليه الأمراء ، فتبادر الى مبايعته ، ويصله رسولها قبل رســولهم حاملا النبأ ، وانها فى انتظاره لتسليمه مقاليد الملك ، مستترة فى نفسها ــ فى ذات الوقت ــ على أنها سوف تظل قابضة على السلطة وتصريف أمور الدولة . ويسر توران شاه للأمر ويتهيأ للقدوم الى مصر من حصن كيفا بعد إبعاد أبيه له فيه عشر سنين .

شجرة الدر فى وقفتها الجبارة للدفاع عن البلاد :

خلال هذه الأحداث ، كانت المعركة مع الصليبيين لم تزل دائرة وقد حشد لها العدو كل طاقاته العسكرية . ولكن سقوط دمياط كان قد ألهب قلوب أهلها للدفاع عنها فتداعوا جميعهم الى حمل السلاح للذود عن وطنهم كما اخذ الأمير فخر الدين يعد العدة للثأر بعد الهزيمة التى منى بها من قبل . فى هذه الفترة العصيبة ، نرى شجرة الدر ، تقف قبل أن تعلم مصر موت الملك ، وقفة جبــارة لاحباط مسعى العدو وتدمير خططه ، مواصلة الليل بالنهار للأهبة والاستعداد ولايقاف زحفه مؤلفةمع أركان جيشها فرقا من الفدائيين أخذت تنقض فى جنح الليل وفى النهار على معســكراته ، تجنــدل جنده ، وتقود المئــات من أسراه ، وتدمر منشآته ، الى أن انتصف الشــتاء ، وقلت ذخيرته ، ونضبت أقواته ، ودمرت الأعاصير المئات من سفنه .

ولكن ذيوع نبأ موت الملك : يشدد من عزيمة العدو ، فيتجه بكامل عدده الى المنصورة مجتازا النهر لمهاجمة المدينة التى اتخــذها المصريون قاعدة للدفاع .

ودارت المعركة ، وانصبت القذائف النــارية على الصليبيين من المصريين ، وتوالت عليهم حملات الفدائيين فتولاهم الفزع . ولــكنهم مع

هـــذا استطاعوا الوصول الى المنصورة . ودوى النفير : ان الصليبيين نزلوا الى الساحل .

ويحتدم القتال ، ويستشهد الأمير فخر الدين . يحتدم فى الشوارع ويشترك فيه أبناء الوطن جميعا نساءا ورجالا واطفالا . وتتقدم طليعة الغزاة حتى تبلـغ ساحة القصر . ويتفاقم الخطر . ترى ماذا ستصنع شجرة الدر ؟ هل تظل فى الخطر ؟ لا .. هنا تدفع شجرة الدرجاريتها جيهان لتصرخ ببيبرس خطيبها ليتقدم .. وتقرع الصرخة آذان القائد الشجاع لتشعل فيه لهيبا يدفعه كالسيل على الأعداء فتدور عليهم الدائرة ويقتل قائدهم الأمير أرتوا ..

وترتد فلول الفرنجة والقائد المظفر يجول فيها ، ويكتب صـــحيفة انتصاره الخالد فى المعـركة ومن ورائه شجرة الدر ، ويقع الخلل فى صفوف الصليبيين على حين تزف بشائر النصر فى القــاهرة . وتتبعثر الحملة الصليبية السابقة أشلاء ورمما ، ويسـاق من بقى أسـيرا الى المعتقلات وفى الطليعة لويس التاسع بعد أن استسلم مع اخويه والعشرات من الأمراء والنبلاء ، فى ذلك الوقت يصل الملك الجديد توران شاه من الموصل مع حاشيته وبطانته ويذاع اذ ذاك نعى أبيه الملك الصالح والمناداة به ملكا على مصر .

ولكن هذا الفتى الذى لم يكن بأهل لتسلم مقاليد الدولة ، يسـتبد بالأمر كما يوغر أصحابه صـدره على شجرة الدر وعلى الاسـاءة الى الأكفاء ، فما يلبث أن يضيق به الشعب والمماليك مدبرين له مقتلا .. ولتئول سياسة الدولة ثانية الى شجرة الدر . وتحسن شـجرة الدر التصرف فى هذه السياسة بجدها ودرايتها وبتعضيد من المماليك الذين كانوا عدة الدولة آنذاك كما تحرص على أن تلقب بالملكة أم خليل حتى لا تنكر عليها التقاليد فى مصر الاسلامية الملكية كامرأة ، مختارة الأمير عز الدين ايبك الجاكنشير ليكون كبيرا لأمنائها .

شجرة الدر وفدية الملك لويس التاسع لخزينة مصر :

وتعمل شجرة الدر لعزة مصر وقوتها ما استطاعت ، فتفـرض على زوجة لويس التاسع فدية مالية عظيمة لفك أسر زوجها حينما حضرت الى مصر من فرنسا للتفاوض معها لاطلاق سراحه وتصلح بهذه الفـدية مادمرت الحرب فى مصر ..

وبعد ، لم آثرت شـجرة الدر الأمير عز الدين ليكون أمينا لها على غيره من الأمراء وهناك من يفوقه شجاعة وسطوع اسم كالظاهر بيبرس قاهر الصليبيين فى المنصورة وغيره ؟ . لذلك سر خفى ، ذلك أن شجرة

الدر كانت امرأة طموحا وصعبة المراس ، ولن تسلم بانتقال السلطات من يدها بأى ثمن وقد كان الأمير عز الدين ، رجلا هادئا غير طموح، ولن يخشى جانبه ...

شجرة الدر تلقب بالمستعصمية :

واحكمت شجرة الدر تدبيرها لارضاء خليفة بغداد الذى كان لابد من اعترافه بالجالس على عرش مصر . فاضافت الى اسمها صفة أخرى ـ ارادت بها استرضاء الخليفة المستعصم فأصبحت تدعى ام خليل المستعصمية ونقش اسمها على النقود وصدرت باسمها الاحكام . وارتفعت حناجر الخطباء باسمها على المنابر ـ أيام الجمع ـ بهذا الدعاء « اللهم وادم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين أم خليل » .

عهد نصر وبر وسلام :

يقول التاريخ ان عهد المستعصمية . كان عهد امن وسلام وبر بالفقراء .. عهد عزة وحرية وقد جلا الصليبيون عن القطر المصرى ، ارضا وساحلا وعادت الراية العربية ترفرف على دمياط من جديد وعلى القطر المصرى بأجمعه خفاقة عالية ..

شجرة الدر تتنازل عن العرش :

ولكن هل استقرت الأمور لشجرة الدر ، فى مصر ، وهل هادنها اعداؤها ؟ لانها هو الخليفة المستعصم لا يرضى عن ولايتها لمصر ، فيوجه الى الأمراء رسالة ينكر فيها عليهم تولية امرأة !

وهنا تلجأ شجرة الدر ثانية الى حسن تدبيرها فلا تعلن شق عصا الطاعة على الخليفة بل تنتخب للعرش الأمير عز الدين ايبك باسم المعز ـ كبير أمنائها ـ ويصل جواب الملك « المعز » الى الخليفة فى بغداد مع رسوله معبرا فيه عن ولائه وطاعته .. كما يعقد له على شجرة الدر بعد أيام .

ولكن الأيام لاتلبث ان تتجهم فى وجه شجرة الدر منذرة بالعاصفة فالانباء ترد بانتفاض أمراء آل ايوب فى الشام ويتحرك صاحب حلب ـ صلاح الدين يوسف بن العزيز نحو مصر ـ كما يجعل المماليك من صبى صغير من بيت الملك الصالح ملكا ، باسم الملك الأشرف موسى ، ليكون شريكا لايبك فى العرش . كذلك يشور المصريون الذين كانوا يؤمنون بانهم احق بالعرش من الكرد والتركمانية . وتشرف الدولة وقد تفرقت

كلمتها ووحدة صفوفها وتوزعتها المطامع على الانحلال . غير ان شـــجرة الدر كانت ترقب الحوادث فى يقظة وتعد لكل أمر عدته .

شجرة الدر تحفظ وحدة الصفوف لدرء الخطر :

وتقع المعركة حين تصل طلائع الناصر الأيوبى ويخـــرج المصريون لقتاله وعلى رأسهم الملك المعز والمماليك . ليوقفوا جيش الملك النـاصر صلاح الدين الزاحف الى مصر ، ويتم بينه وبين المعز على ان يكون للمعز مصر ويمتد ملكه الى حدود الأردن فغزة والقدس ونابلس والساحل كله، وللناصر ما وراء ذلك من بلاد الشام . فى هذا الصلح ، ارادت شـجرة الدر جمع كلمة المسلمين والحيلولة دون تفرقتهم ليكونوا صـفا واحدا لدرء الخطر المشترك . .

ويصفو الجو للملك المعز ويستأثر بالعرش . غير أن شجرة الدر تظل هى القـابضة على السلطان ولا راى لغيرها ولا ارادة . خلال هذا يتنكر ايبك ــ المعز ــ لرفقائه من المماليك فيغتال احدهم ــ آق طاى ــ وقد سولت له نفسه منافسته ــ باشارة منشجرة الدر . ويغضب هذا الغدر أصحابه من امراء المماليك فينزحون عن مصر وعلى رأسهم القائد المظفر الذى هزم الصليبيين فى المنصورة ، وكان له المواقف الخالدة فى هـذا التاريخ .. الظاهر بيبرس .

فى هذه الفترة نرى المعز ايبك وقد دانت له البلاد يخطب لنفسـه ــ كما اشار عليه مملوكه قطز ــ ولما تنجب له شجرة الدر أبناء يسندون عرشه ــ ابنة الملك المظفر الايوبى ، صاحب حماة ، ثم لؤلؤة ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ . صاحب الموصل فى آن واحد ، غير آبه للأمراء آل ايوب والموصل من أطماع فى عرش مصر معرضا عن نصيحة نصحائه بما لشجرة الدر عليه من حقوق وقد رفعته الى العـــرش دون غيره من امراء المماليك ممن هم أعظم شأنا وتاريخا .

ملك مهدد وكبرياء جريح :

ولكن هل ترضى شجرة الدر بمن ينافسها أو تدع هـذا الذى جرح كبرياءها وجحد نعمتها عليه دون أن تنتقم منه ؟ وهل كانت بالتى تقهر ؟

لا . لقد قر قرارها على أمر عظيم واستيقظت فيها غريزة الدفاععن نفسها كما تستيقظ لدى كل فرد وأمة عند الخطر وقد هددتبسلطانها وكيانها .. فكتبت أولا للملك الناصر صلاح الدين ــ صاحب دمشق ــ تدعوه الى الزحف على مصر واعـدة اياه بتهيئة أسـباب النصر له كما

انها سوف تتزوجه ومن ثم نفذت ما احكمته من خطة لقتله باستدراجه اليها وبالايعاز الى خدمها لخنقه فى الحمام ..

ولكن هل سيستتب الأمر لشجرة الدر كما ظنت بعد أن ائتمرت على زوجها وقتلته لغيرتها ويخلو لها الجو فى مصر ؟؟

لا .. فما اسرع ما كان القصاص والجزاء الحق اذ ما تولى الحكم ابنه نور الدين على العرش حتى اقتص لأبيه مع أمه منها فقتلتها الجوارى بأمر منه ومن ثم لتلقى من بعد من برج القلعة الى خندق مجاور عارية..

ثلاثة شهور على العرش وعشرين عاما من وراء الحكم ، ملكة مطاعة :

وبعد ، لقد حكمت شجرة الدر مصر ثلاثة شهور بمفردها ، وعشرين عاما مع زوجيها : الصالح ، والمعز بصفة رسمية حين انتقلت لممارسة الحكم من قصرها الى القلعة مقر الحكم ولم تكتف بالخطبة باسمها فى المساجد ، بل ضربت نقودا باسمها نقشت على الوجه الأول منها : بسم الله الرحمن الرحيم . وعلى الوجه الثانى : المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ، ووالدة المنصور خليل الخليفة أمير المؤمنين .

حكم التاريخ :

أجل لقد حكمت هذه الملكة وساست أمور الدولة بحسن تدبير وادارة برهنت على قوة عقلية وعظمة شخصية . وكان دورها فى الحكم من اسطع الأدوار اذ عملت ـ كما رأينا ـ على جمع كلمة المسلمين ليكونوا قوة ازاء الخطر المشترك . وكانت أول امرأة فى الاسلام توصلت بعد الهند الى الحكم ، وحلقة الاتصال بين الدولتين الايوبية والمماليك ، واشتهرت بالمقدرة الفائقة فى السياسة والحكم حتى شعر الملك الصالح بتلك القوة المعنوية التى كانت من ورائه والتى وصل بفضلها الى العرش ، فولاها الملك من بعده . فما هو حكم التاريخ عليها ، بعد تلك المواقف الحافلة أو لم تؤلف شجرة الدر بنفوذها على الملك الصالح جيشا قويا من المماليك لحفظ البلاد والدفاع عنها ، وتعمل على فشل المساعى للملك لويس التاسع لاحتلال مصر ، انها كانت من وراء الظاهر بيبرس وقهره للصليبيين فى المنصورة وجلائهم عن مصر ؟؟

بلى ، لئن لم يكن لشجرة الدر الا أن حياتها كانت مسرحا لأحداث غيرت فيها بحكمتها ونفوذها وجه التاريخ لتلك الفترة الحافلة بالحروب والوقائع وبأنها عملت على جمع كلمة المسلمين فى أدق الأوقات لدرء الأخطار عن بلاد العرب والى انها أول ملكة فى الاسلام بعد الهند ،لكفاها أن تحتل مكانتها فى صدر التاريخ ، وأن اختتمت حياتها بمأساة ..

أم المقتـــدر

لم تكن أم المقتدر من أولئك النساء ، اللواتى يمر عليهن التاريخ مرا عابرا دون أن يتجسد لهن فيـه كيان عظيم ، له شخصيته ومسئولياته فى نشر العلم والوعى وقيادة دفة الكفاح للحرية والسيادة فيه ، فقـد كانت تتمتع بهيبة روحية الى ثقافة وفكر وبصيرة ، كان لها منهـا أكبر القوى وأغناها ، قوى رفعت بها شأن المرأة الحاكمة فى شـــعبها من السلبية الى وحدة تتأثر وتؤثر فى مشاعره وأحكامه ومستقبله ومصيره، ليلتف ويتماسك حول الحكم ، متحدا ، متضامنا ، مضحيا ، لعظمة وطنه ومجده .

***

كانت أم المقتدر ـ كما عرفت فى التاريخ ـ عالمة اديبة متفقهة ،وكان مجلسها يتناسب مع سمو ادراكها وعلمها وأهدافها العالية اذ كان يحفل بالصفوة المتألقة من الرجال والنساء البارعات فى الفن والأدب،المتبحرات فى الفقه .

ولقد تزوجها المعتضد حين استرد مصر ، فكانت الى جانبـــه خير سند وعضد . ولكن لم تتح لشخصيتها القوية وارادتها الغالبة الظهور الا حين آلت الخلافة الى ابنها الخليفة المقتدر بعد أخيه المكتفى . فقـد آل اليه الملك ، ولما يتجاوز الثالث عشر من عمره ، ولقـد كثرت الفتن ونشبت الحروب فى عهده طيلة خمسة عشر عاما،استحالت فيها جزيرة العرب وقسم من الشام الى أرض بلقع ، كما أضعفت شوكة الخليفة ، وهاجمت الدولة البيزنطية حدود المملكة العربية .

في هذه الآونة ، برزت شخصية امه قطر الندى ، فقضت على الأزمة الاقتصادية بمشاريع للعمل كما تقلدت مقاليد أمور الخلافة ، وتسيير الجيوش لمكافحة الأعداء حتى اجلتهم عن الاراضى العربية الى أن بلغ ابنها اشده . وكانت تتصدر مجالس القضاء ، وترفع عن الناس المظالم ، وتقابل الوفود والسفراء،كما كان مجلسها يغص دائما بالعلماء والشعراء. وكانت تنظر فى شكاوى الناس فى كل يوم جمعة بحضور القضاة والأعيان ـ نظرة المنصف العادل ، كما كان توقيعها على دفاع المظلومين امرا لا يرد .

***

وساهمت أم المقتدر فى العمل للخير العام فى كل ناحية ومجال فانشات المدارس والمستشفيات ، وبلغ نفقة مستشفاها المسمى بالمقتدرية سبعة آلاف دينار فى كل عام .

نساء من الأندلس:

الزهـــراء

كانت الزهــراء ــ الأديبــة الفاتنة ، وجارية الخليفة عبــد الرحمن الناصر ــ على جانب عظيم من الجمال والذكاء وقوة الفكر ، ومن دعائم تلك الحضارة الراقية التى شع سناها من اسبانيا العربية الى أوربا ، اذ كان لها الأثر البليغ فى ذلك الخليفة ، الذى بلغت الأندلس فى عهده مبلغا عظيما من الرقى والازدهار ، وقد لمس الخليفة ما تتميـــز به من مواهب وصفات ، فأحاطها بكل ضروب الاكرام والتقدير،وما كان ليرفض لها طلبا أو رجاء .

ولقد حدث فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الزهراء ، ذات حظوة ومكانة لدى الخليفة ، ان ماتت زوجة له وتركت مالا كثيرا ، فاراد ان يخلد ذكرها ، ويقدم الى الشعب مأثرة كريمة ، يحسن بها الى المدبين والبؤساء ، فأمر بأن يحرر بذلك المال اسرى المسلمين ، وطلب الأسرى فى بلاد الافرنج ، فلم يجد . وهنا قالت له الزهراء:

« تمنيت لو بنيت لى مدينة بهذا المال ، وسميتها باسمى » فبنى لها مدينة الزهراء فى سفح جبل العروس ، وجعلها متنزها ، ومسكنا لها ومقرا له ولأرباب دولته ، ونقش اسمها على الباب ، بل قيل صورتها . .

وهنا يبرز دور الزهراء كقوة بناءة وملهمة للخير والاصـــلاح ودعم النهضة ، فقد أوحت الى الخليفة واثرت عليه لتزيين مدينة قرطبةوغيرها من المدن فى الأندلس ، وانشاء الحدائق العامة وتأسيس دور الكتب فى انحاء البلاد ، وتشجيع النهضة النسوية ، وذلك بالسماح للنساءبحضور حلقات الدروس العامة ، والمحاضرات فى العلوم والآداب ، كمــا حببت اليه انشاء دور للصناعة والمدارس والمستشـــفيات التى ملأ بهـــا بلاد الأندلس .

ممتــاز زمانى

معبودة الهند وصاحبة « تاج محل »

على ضفاف نهر جمنا فى الهند ، وعلى مقربة من مدينة «اكبر» يقوم ذلك الأثر الخالد المسمى « بتاج محل » أحد عجائب الدنيا فى هندسة البناء ودقة الفن ، والذى يسعى العالم الى زيارته من جميع الأنحاء .

فى هذا الكتاب الحجرى حيث تحفظ افكار الأمم وعبقريتها ،يتجلى معنى الاخلاص العميق والتكريم فى أعظم أثر شاده ملك لزوجه ، ذلك الكتاب الباقى على الزمن ، الذى رسم شاه جيهان فى مرمره الساطع لزوجته ممتاز زمانى ــ احر عواطف المحبة والتقدير والثقة والوفاء النادر .

فمن هى ممتاز زمانى هذه التى اقام لها زوجها ذلك البنــاء الذى راقب صنعه بنفسه طيلة سبعة عشر عاما وعمل فى بنائه عشرون الف رجل ؟؟

قيل فى احــدى الروايات التاريخية أن الملك شاه جيهان ، تعرف بممتاز زمانى حينما كان أميرا ، فى قصر والده فى عيد النيروز ، ابان اقامة سوق خيرية تولت البيع بها أميرات الأسرة المالكة. وقد حضرتها مع ابيها واصف خان ــ وهو من كبار القواد ــ فنالت اعجابه وتقــديره وتزوجها فى احتفال عظيم لم يكن يماثله فى عظمته ، الا زواج الخليفة المأمون ببوران ، وكان لها من العمر اذ ذاك تسع عشرة سنة وبضعة شهور .

ولم تكن ممتاز زمانى ذات مقدرة فى فن السياسة ، وادارة شئون الملك كعمتها نور جيهان بل كان نفوذها العظيم يقوم بما تبذل له من عطف وتسدى من خدمات ، وتخفف من ويلات كان المظلومون يحلون فى ساحتها كلما ألمت بهم نازلة فيجدون الرحمة والعدل ، وكثيرا ما كانت تتوسط

لدى زوجها للعفو عن السجناء فاذا هم أحرار بفضلها . ويقول فيها أحد المؤرخين :

لقد وصلت هذه الملكة الكريمة الى مرتبة العبادة ، ومقام الأولياء لدى شعبها . ولو أردنا احصاء مبراتها وسعيها لدى زوجها فى احقاق حقوق الناس ورد المظالم ، لملأنا مجلدا كبيرا ، فان فضل تقواها ورقة قلبها وسعيها للخير لشعبها مما يفوق الوصف .

وكانت ممتاز زمانى أيضا ، شجاعة باسلة وفية لزوجها اذ كانت تقاسمه الى جانب أبهة الملك متاعبه وشقاءه ، كما كانت ترى الى جانبه فى المعارك تشجعه وتبث فيه روح الثقة والايمان والقوة .. وماتت وهى معه فى ساحة القتال .

تلك هى قصة صاحبة الأثر الخالد « تاج محل » تألقت فيها معانى الخير والمحبة للشعب وكأنها الرحمة بتسط له من السماء يديها فى أعمق أعماق بؤسه وشقائه ، تكشف عنه الظلم ، وتهبه الحياة من جديد بعد أن كان سجينا مقيدا فى أغلاله ، كما أشرقت لزوجها بالوفاء بالجميل والاخلاص والبسالة الرائعة لتمده أبدا بالأمل والعزم فى حياته ، وليجزيها به ـ بعد أن طوى الموت تلك الشمائل ـ ذكرا جميلا خالدا ..

نور جيهـــان
ملكة الهنـد

كان العصر الاسلامى الذى امتد من القرن الحادى عشر حتى السابع عشر الميلادى للهند ، من اعظم عصورها الحافلة بالرقى والعظمة ، عصراً كان للمراة الهندية المسلمة فيه دورا ورسالة وتاريخا . .

ففى خلال هذاالدور من الحكم الاسلامى الزاهر للهند ، والذى دام سـبعة قرون تجلى اثر المراة ومكانتها فى ذلك القطر الذى حفـل بكل عجيب ، فقـد اختلفت أجواؤه من الحرارة الى البرودة وطاولت فيه الهملايا ــ أعلى جبال الأرض ــ السحاب ، وقامت فيه أجمـل بقـاع الأرض ، كشمير . واختلفت اجناسه وطقوسه الدينية ، وتعـــددت لهجاته حتى قيل انها تجاوزت المائتى لهجة . فى هذا القطر ، رفع الملك « اكبر » من شأن المراة فجعلها مستشارة له واتاح لها سلطات للحكم ، فاذا هى توفر للشعب ، الكثير من وسائل الخير والاصلاح ، تلك هى زوجته « نور جيهان » .

***

كان والد نور جيهان عالما فاضلا نزح من طهـــران ، ودخل بلاط السلطان « محمد اكبر » وارتفعت منزلته فى البلاط لعلمه وفضله وكان معه زوجته وابنته التى اهلتها مواهبها للوصول الى العرش .

كانت نور جيهان اديبة فاضلة عارفة بالفارسية والعربية مطلعة على آدابها ملمة بالعلوم والفلسفة ، بارعة فى الفنون والموسيقى . رآها الملك فى حفل خيرى فافتتن بها ولكنها كانت متزوجة من رجل من الشـعب ويشاء القدر ان يموت زوجها وما تزال فى الثامن عشر . ويعرض عليها الملك الاقتران به فترضى وتلقب بنورمحال ، أى نور القصر ، ثم نورجيهان أى نور العالم .

ويبدو أنها كانت تحمل كثيرا من معانى هذا اللقب الساطع ، فلقد بدأ نفوذها على الملك فالبلاط ، فالشعب منذ ارتقائها للعرش . وشاركت الملك فى الحكم ، وكان أمرها مطاعا فى كل مرافق الدولة ولم ينقصها من مظاهر الملك الا لقاء الخطبة فانها بقيت لزوجها .. وكانت تقابل أمراء المملكة ، وتستعرض الجنود . ولأول مرة فى التاريخ الاسلامى ضرب على جانب الواحد من النقود ، وعلى الجانب الآخر ما يلى :

« بأمر نور جيهان يزداد وزن الذهب مائة ضعف عاشت الملكة » .

وبرهنت نور جيهان على كفاية عظيمة فى السياسة ، وادارة دفة الحكم الى جانب زوجها . ولقد حفلت صفحات التاريخ الهندى بتلك المآثر فلقد اشاعت العدل والمساواة بين طبقات الشعب ، وعملت على النهوض بالبلاد وبذلت فى سبيل رقيها أعظم الخدمات الاجتماعية وأصدق الجهود. وكان تطهير البلاط من المفاسد واغاثة المظلومين، واعادة الحريات الى السجناء المضطهدين وايواء المشردين ومن قسا عليهم الدهر وتعيين المخصصات لهم وشملهم بعطفها وبرها الدائم ، ومن أبرز أعمالها وسجاياها . وامتد عطفها بوجه خاص الى الفتيات اليتيمات والفقيرات فأنشأت لهن الملاجىء والمعاهد يتلقين فيها من العلوم والفنون والصناعات اليدوية مايؤمن لهن سبل المستقبل والحياة الكريمة . كما كان من اختصاص تلك المعاهد رعايتهن حتى يصبحن فى كنف ازواج صالحين كذلك كانت تدفع لهن الصداق من مالها الخاص .

وامتدت مآثر نور جيهان وتعددت . فكان لها أثرها فى كل مدينة من مدن الهند من مدارس أو مستشفيات او حدائق عامة او سبلا للماء . وكانت ذات روح رياضى وشجاعة واقدام . روى عنها انها كانت تخرج مع نساء البلاط وهن على صهوات الجياد كالرجال . ولعل اعظم صفحة فى تاريخها هى قيادتها للجيش حينما وقع زوجها أسيرا فى يد منافسه « مهابة خان » فركبت فى جيشها ، وخاضت غمار تلك المعركة وحررته من الأسر ، وعادت به الى عاصمة ملكه بعد أن قهرت العدو وضمنت للبلاد حريتها وسيادتها . ولكنها اعتزلت الحكم بعد وفاة زوجها ، وان لم تعتزل عمل الخير والنشاط العام لمنفعة الشعب والبلاد .

***

والى نور جيهان ينسب استنباط عطر الورد ، وتحسين ازياء النساء وتنظيم الطعام وتنسيقه على الموائد وفى الصحاف على شكل ازهار . كما ينسب اليها تنمية الروح الفنية فى مجالسها والاهتمام بالأدب والموسيقى تلك الروح التى سرت الى جميع الأوساط وكان لها أعمق الأثر فى تهذيب المشاعر ، ورقى المجتمع .

المرأة والكفاح لتحرير الشعوب :

جان دارك

١٤١٢ - ١٤٣١

مابرحت صرخة « جان دارك » للحرية ، تنطلق عبر الشعوب المضطهدة لتستقر فى سرائرها يقينا وتحيا فكرة ، ماعرفت الوطنية الصحيحة دماء تتفجر من العروق ، واباء يتحدى الظلم ، وعقيدة تقارع الحديد والنار . وان قولها حين شدوا وثاقها لتحرق ، بأن الله مع الضعيف وان اضحى وحيدا ، وان خذله فى محنته الأقربون ، ماتزال تهز سمع الزمن : «نعم انا فى هذه الدنيا وحيدة ، وقد كنت ابدا فيها ، وحيدة ، تركت ابى لأسعف بلادى ، فطلب الى اخوتى ان يفرقونى فى البحر اذا لم اطعه وارعى غنمه بينما فرنسا تجرى دماؤها على الأرض وتفيض . تهددوننى بوحدتى ، ومابى والله ذعر منها . ان فرنسا وحيدة ، وان ربى لوحيد ، فما وحدتى الى جانب وحدة قومى ، ووحدة الله ربى؟!» .

***

لم تكن رسالة الفتاة « جان دارك » لقومها ، الا ايمانا جديدا لعالم جديد من الحرية والخلاص ، ذلك الايمان الذى لم يتطرق اليه الوهن أو القنوط الذى ما عرفته جان الا انه خطيئة عظمى فى حق الله والوطن . .

***

ولدت جان دارك فى مقاطعة الفوج فى فرنسا سنة ١٤١٢ من أب مزارع كان عينا من اعيان قريته ، واحرقت بتهمة السحر والهرطقة سنة ١٤٣١ ، ثم دارت دورة الزمن فاذا بها تعلن قديسة سنة ١٩٢٠ .

فى سجو الليل ... وفى آيار سنة ١٤٢٨ تستمع جان لصوت خفى

يناديها ان تسرع الى مساعدة الملك . انه صـوت يناجيها ، بل يدعوها آمراً :

« ياصفية الله تشددى ، وبلغى رسالتك ! » .

ويتملك جان دارك شعور عميق بحمل الأمانة . اليست هذه هى الظاهرة الخفية التى يرسلها المولى العظيم لكل الناس ؟ فلتذهب اذن . لتنسحب فى جنح الليل ، تلك الفتاة الراعية ذات السبعة عشر ربيعا فى ثوبها الأحمر . وانها لن تدرى بعد انه سوف ترتفع الصلوات والابتهالات لوجهها مع وجه الله ذات حين .

***

عرفت جان ــ منـذ طفولتها بالرجولة والميل الى الحرب . وعرف ابوها فيها هذا الميل ولمس ما تنتوى القيام به من عمل خارق ، فهددها بالغرق لتكف ، فمالانت ، وقد اتصفت بقوة العقل والشخصية وبالحيوية والطاقة الجبارة . كما عرفت اكثر بقدرتها على قيادة الرجال ، وبالتالى فى السلوك ، وادب الخطاب .

وكانت جان على قوة من الروح ، والتمرس بالاهـوال لا تنثنى او تتراجع فى دعوتها كما نراه واضحا فى سيرتها الحافلة ، تحسن التصرف فى المواقف ، فقد تبدو احيانا متلاطفة ، وآنا خشنة ، وقد يجىء منها هذا التصرف كما لو كان خطة مرسومة ، او فطرة مطبوعة . بيد انه فى الحالتين كان مجديا فى كسب جميع الناس من ملوك وافراد على السواء .

وحان الوقت لتقوم جان بمهمتها المقدسة ، ومازال صوت السماء يناديها لتهب لمساعدة الملك الذى لم يتوج .. ويهيب بهـا الصوت أن تذهب الى روبير « بودريكوت » فى مدينة « فوكولير » ليزودها بالحرس وتنجح الفتاة الريفية فى اقناعه بأن الله هو الذى وجهها اليه ، لتطلب منه أن يبعث الى ولى العهد من يحذره من الاشـتباك مع العدو . وانه سوف يتوج ملكا ، وانها هى التى ستضع التاج على مفرقه .

... فى هذه المحاولة الأولى تعاد الفتاة الى ابيها فى «دومريمى » ولكنها لم تتحول عن غايتها بل ازدادت قوة بهذا الايمان . ومن ثم نراها تعود الى عملها اليـومى فى الأسرة ، والى صـلواتها وتأملاتها . بيد ان الصوت الخفى مازال يناجيها لتبلغ الرسالة ولتعاودها معطاقة من الايمان بمهمتها الوطنية المقدسة ، التى لا تقهر .

وتزوغ جان ثانية من مراقبة أبيها وعينه الساهرة . وتحل فى بيت أسرة صديقة « للاسار » ويلهج بذكرها اهل البلدة . ويكثر المقـال عن

فتاة مخلصة من « بوأشيرو » تتحدث عن رسالتها بصراحة لكل راغب فى سماعها سواء آكان من رجال الكهنوت او من الشعب .

واخيرا يستجيب « بودريكوت » لها ، ويوافق على تزويدها بحرس وبكتاب توصية لولى العهد ويقدم لها حساما تتقلده وبزة رجال . وتمتطى جان مساء ٢٣ من شباط صهوة جواد قدمه لها اهل البلدة فى «فوكولير». وتتجه مع مرافقيها وحرسها الستة ، الى طريق طولها ثلاثمائة ميل تحف بها المخاطر ، وتتوسط رقعة محتلة بالانجليز . ويعترض سبيلها اربعة أنهر فاضت أثر هطول أمطار غزيرة . . .

ويتعذر على جان السير الا ليلا . وكان عليها انتتجنب المرور بمدينتين كبيرتين ، هما : « تروى » و « أورليان » ، كما كان عليها أن تتجنب جنود العدو .. وصلت جان مع حرسها الى شينون فى ٦ آذار . وكان مصير فرنسا كله يتوقف على مصيرها هى ، فى البضع ساعات التالية . وتوجهت الى القصر ، فطردها الحرس .

وأثار وصولها الى شينون موجة من التساؤل . ووصلت الأنباء المثيرة الى القصر ، فاجتمع لها القصر الملكى برئاسة «شارل ولى العهد» . وتم القرار على انه يجب الاهتمام بما تنادى به الفتاة ، وفرنسا مهددة بالخطر وصيحات الاستغاثة وطلبات النجدة تتعالى ، من مدينة اورليان حتى عنان السماء .

وجاءها الرسول يدعوها لمقابلةولى العهد . واهتزت فى أعماقها رهبة. ولكنها تقدمت معه فى ثبات وقد احست أن بيديها مقادير امة ووطن ..
واخترقت جان جمهورا صامتا . ولمعت أمام عينيها أنوار خمسين مشعلا . ترى هل تستطيع التعرف الى الملك ، وليس هناكاى رمز يدل عليه ؟؟ .

لا : لم يخن الحدس جان فى هذا فاتجهت اليه محيية .

وقال لها شارل : لست انا الملك

قالت : قسما بالله ايها الامير الطيب ، انت هو ، وفى ركن منفرد قصت جان على ولى العهد رؤاها ، فابتسم بعد يأس ، وقد اضاء الامل والثقة روحه ، وكان يشك حتى هذه اللحظة فى شرعيته كابن ملك ..

قالت له : اننى اقول لك نقلا عن « المولى » انك الوارث الحقيقىلفرنسا وابن الملك ! واستمع اليها شارل وبدا كأن ثمة عزيمة سرت فى كيانه . الم تنبىء الفتاة عن خطتها لمد أورليان بالعون العاجل ؟.

ثم ماذا كان فى اورليان ؟ هل كان حصار الانجليز لها وحشد قواهم لـكسر خطر الثوار فقط ؟ كلا بل كان ذلك الحصار تمهيدا للاستيلاء على فرنسا باكملها . ولم يكن هذا كله الذى هال جان ، بل تلك المظـالم التى شهدتها تحل فى قومها . وان الله اذا كان هو الذى ارسلها لتتويج ولى العهد ، فانما يريد بهذا صونا لوحدة الوطن .

ولم تكن فرنسا ــ وطنها ــ اذ ذلك ــ اى فى سنة ١٤٢٩ الا اقطاعيات تابعة للتاج البريطانى . وكانت بلادا منهوبة اقفرت من معظم سكانها بسبب حروب دارت فى جنباتها خلال تسعين سنة خلت . واصبحت على وشك الانحلال فور احتلال الانجليز لاورليان واجلاء حامياتها ، ولم يبق فيها الا فلول جيش ممزق الأوصـال يرابط فى « اغنكورت » سنة ١٤١٥ فى اللوار ..

واولئك هم جنود الانجليز يحصدون قمح الفلاحين الفرنسـيين ، ويستولون على أرزاقهم وقوت عيالهم ويجلونهم عن قراهم .. ويطرق سمعها فى الليل ضجيج الهاربين من الطغاة ، وصراخ اطفـالهم فتتقطع نفسها عليهم حسرات .. هؤلاء الفلاحون الطيبون ، كيف يعيشـون بعد ان سلبت منهم الأرض وانها منهم بمكانة الروح وشرايين الحياة . أو لم تمتزج كل ذرة من ترابها بدمائهم وعرق كفاحهم ، وبعظام أجدادهم واجمل ذكرياتهم ؟ .

احرام عليهم بعد اليوم ترابها ، وخيراتها ، وحلال لكل طاغ ؟!

وتعتزم جان ــ وقد زلزلها الخطب ــ امرا خطيرا أو لم يعمـر قلبها نداء السماء والهامها بأن الله مرسلها لطرد العدو وتتويج ولى العهد صونا لوحدة الأمة وتحريرا للوطن ؟!

او كانت الشدائد الا مربية الشعوب ، أو كانت المحن الا موحدة الأمم اجل فما ان تعالى منها النداء ، حتى نفذ الى القلوب ، وبعث فيها كوامن الايمان وشد العزائم فطارت اليها الجموع ، وترك المزارعون زرعهم وتخلى الرعاة عن اغنامهم ، ونسجهم الخطر الداهم فى نسيج متماسـك حى يتدافع للتضحية عن الوطن ، موطن الكرامة ، ومجال العمل ، ومستقر الحياة الكريمة الماجدة ..

قالت جان للأمير أيها الدوفين :

« انى مرسلة لطرد الانجليز عن أورليان وعن فرنسا ، ولتتويجك ملكا فى كاتدرائية « رانس » . ويأبى شارل ان يتبع جان ــ ولا حول له ولا قوة ــ فتبث فيه الاقدام وتقول له فى غيرة واخلاص : «شارل» انى من الأرض أتيت ، وعلى الأرض عملت . ومن العمل فيها كسـبت قوتى . فاعلم بأن الأرض لك لتحكمها بالعدل ، وتحفظ فيها سلام الله .

ويطيع شارل جان دارك بعد جهد ، ولكنه يقول لها : سأخاطر وليكن ما يكون اني أحذرك من الآن . اني قد تخور عزيمتي . ولكني على كل حال سأخاطر ، ثم يتجه الى البلاط قائلا : « لقد اعطيت قيادة الجيش الى الفتاة ، فالفتاة تتصرف فى الجيش كيف تشاء » .

ويعارض قائد الجيش « لتريمى » ولكن جان تفجرها الفكرة الحازمة انها مرشحة للموت . فما تضيع لحظة بل تمتشق سيفها ثم تصيح : من منكم لله ولفتاته ، من يسير معى الى اورليان ؟ ويتبعها « لاهير » الى أورليان ..

وسارت جان على راس الجيش ، وحركتها التحررية تنتشر فى المدن والقرى ، ونداؤها المقدس يخترق القلوب ويهز اعماق الأرض وأطراف السماء : « اطردوا الانجليز خارج فرنسا » ! وانحاز اليها العمال والصناع وأتاها النصر . وكانت ليلة السادس من آذار سنة ١٤٢٩ ليلة الحرية لفرنسا ، وقد طرد من أرضها آخر رجل انجليزى .

***

وتعود جان الى شارل قائلة :

ــ مولاى .. قد نصبتك ملكا فاكتمل واجبى ، وانا عائدة الى حقل أبى ، ويستحسن شارل هذا ولكن جان تتألم ويعتريها غضب شديد فتعود الى ثورتها ومن ثم نراها تقول له فى ايمان عميق برسالتها : هيا بنا نأخذ باريس قبل أن أعود الى أبى ..

شارل : فى مقدورنا أن نحظى بمعاهدة طيبة جدا من دوق بروجندى ..

جان : اتقف القتال ولا يزال الانجليز على هذه الأرض المقدسة ؟

اجل لقد كافحت دارك حتى جلا الانجليز عن وطنها وطهرت منهم الأرض . ولكن هل سيترك هؤلاء الانجليز الفتاة التى اذلت كبرياءهم ، لا .. فقد شرعوا يحيكون لها الدسائس ، ووضعوا ستة عشر الفا من الجنيهات يدفعها « الارل ورك » لمن يأسرها .. وتسمع جان ان الانجليز سوف يحرقونها فتقول :

ــ ولكن لم هذا ؟ وكيف يعقل هذا ؟ ان مافعلت كان بمشيئة الله فكيف يحرقون امراة تقول الحق ؟

ولم تجزع جان دارك حين هددت بالحرق بل قالت للمطران الذى انباها بأن الانجليز سوف يحرقوها :

ــ لو أنى اتبعت مثل هـــذا الحق بالأمس ، فالى أى حال كنتم تصيرون انكم لا عون فيكم ولا نصيــحة . لقد حسبت اننى أرى نصراء خلصاء لبلادى فى بلاط ملـكها ، فلم أجد الا ذئابا يتنازعون على قطع من أشلاء وطن ممزق .. وحسبت أن لله أحبابا فى كل مكان .. لأن الله محب لـكل انسان .. واعتقدت بسذاجتى اننى سأجد فيـــكم قلاعا رواسخ تدفع الأذى عنى ، فاذا بى أجدكم تخلعوننى خلع النعال البالية.

تهددوننى بوحدتى ، وما بى والله ذعر منها ، ان فرنسا وحيدة ، وان ربى لوحيد ، فما وحدتى الى جانب وحدة قومى ووحدة الله ربى . لقد تعلمت أن وحدة الله هى سر قوته .. ألا ما كان حال الله لو أصغى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب مريضة ؟ ان قوة الله فى وحدته ، وكذلك قوتى ، ستكون فى وحدتى ...

والآن اخرج الى الشعب ، الى عامة النـــاس ودهمائهم . فلعل الحب الذى اجده فى عيونهم يفرج عنى كربة البغضاء التى أجدها فى عيونكم . انكم ستفرحون جميعا لحرقى ولـكن ان سرت الى النـــار ، فانما أسير عبرها الى الخلود فى قلوب الناس » .

ففى هذه القلوب ،ساحيى أبد الآباد ، والآن تداركنى بلطفك يارحمن.

***

وتحرق جان دارك محررة فرنسا وقائدتها للحرية وناظمة عزائمها وحافظــة وحــدتها ، تحرق بعــد أن أسرها البرجنديون فى « كمين » واشتراها ورك منهم بمبلغ ضخم وعقـــد معها للتحقيق خمسة عشر جلسة ســتا منها علنية وتسعة سرية ، وكانت ثابتة الجنـان راسخة الايمان برسالتها الخالة وثمانماة جندى يشهدون حرقها ..

ولقد أسفر ذلك النصر المبين لجـان دارك عن أعظم النتـــائج التى صنعت تاريخ فرنسا فى تلك الحقبة وما بعدها . اذ لولا تأثيرها العميق على ولى العهد ، واستطاعتها تحويله الى الغايات العلى بما أثارته من آمال جديدة مثيرة فى أعماقه ، وما تلا ذلك من تفويض لفتاة ريفية ساذجة بمهمة عسكرية خطيرة فى الصفوف الأمامية ، وقيادها البارعة فى الميدان والقرار الوطنى المقدس فى حفــلات التتــويج فى ريمس ، لمـا تسنى للفرنسيين ان يجدوا القوة أو الايمان بالكفاح للحرية ووحدة الصفوف ، والتكتل من وراء الفكرة ، أو يجـــدوا الوسائل التى تساعدهم على التخلص من عسف الأجنبى ، ومن عبودية تذل لها الرقاب ..

هذا ولئن قيد التاريخ فى سجله الخالد قول احد اعداء جان دارك :

« لا يستطيع أحد أن يقول عنا نحن الانجليز ــ اننا خرجنا موفورى الكرامة والشرف » فقد سجل لكفاحها وموتها فى سبيل الحرية فى صفحاته الباقيات الحياة والخلود ، والكرامة والشرف .. كما سجل نتائجه الباهرة فى انضمام دوق برجاندى الى شارل السابع ليكافحا من اجل وطنهما ــ فرنسا ــ ولتتالى انباء الانتصارات بعد تلك اللحظة وتحرر باريس سنة ١٤٣٦ للمرة الثانية ولتصبح فرنسا حرة تتمتع بازدهار الصناعة والتجارة خلال حكم شارل وفيما بعد .. وليصبح شارل رجلا جديدا وكيانا جديدا بعثته جان دارك كما بعثت فرنسا ، ولتظل رمز كفاح للحرية والتضحية لأجلها حتى الموت ، ولتكون النور لكل أمة تبحث عن النور ، فى كفاحها وحين تجاهد للحياة وللحرية .



تــريــزا

القديســـة الأديبـــة

١٥١٥ — ١٥٨٢

« ألا هل يتمثل لنا هذا الحب الخالص لله ، فى ذرف الدموع ، أو فى تلك العذوبة والحنان اللذين نتوق اليهما لنجد فيهما السكينة والعزاء ؟ لا . فليعرف كل انسان اذن ، انما نحن نعبد الله ، ونعمل لمرضاته ، ليمدنا بقوة التواضع وقوة الروح ، بذلك الحب الالهى الذى يمد النفس بقوته وانسانيته » .

***

بهذه السبحات الروحية ، وفى نبرات عميقة حنون ، تصـــاعدت صلوات تريزا الى الله · ومن فيض الضنا والعذاب استمد قلمها وهجه ، لـكأنه أوتار نفس تلتهب بنار الحب ، أو كصور أخاذة بالطيوف والألوان وهذا حبها يفيض بالقوة والعاطفة يتجلى فى الله ، كما فى الموت ، وليهتز كيانها كله وهى تقول : « ألا ما أقوى هذا الحب الذى هز كل كيانى . هلمى أيتها الحياة فغادرينى . اننى أريد أن أفقدك لأجدك ، فهذا مابقى فى طاقتى ، على ما أنا عليه من وهن . تعـــال الى اذن أيها الموت عذبا رفيقا كالنسيم ، اننى أموت من كونى لا أموت » .

***

من حرارة هذا الايمان استطاعت تريزا أن تســـمو بنفسها عن الشـــقاء والآلام ، وقد كانت حياتهـا ألمـا عنيفا تذوب فى وقـدته كل

طاقات الاحتمال البشرى ، وتحرك كل قلب ، بيد أن تلك القطرات من الدموع ــ تلك النعمة الغامرة ــ كانت تنهمر على جراحاتها ، كما تقول كالبلسم .

أجل ، لقد كان شقاء تريزا من آلامها الساحقة ، ولكنها عرفت : ان الشقاء كله ، والعذاب كله والضياع كله هو حين يكف الانسان عن الصراع للحياة .. بل حين يفقد المثل العليا التى عليه أن يبذل ذاته من اجلها وان فشل الانسان ، وعذابه يكمن فى هذا الضعف والاستسلام اذ تضعف روح المقاومة فيه وينطفىء الأمل ، ويغيب الطموح ويفقد القوة على الابداع ، وتجىء تريزا لترتفع بالانسان الى هذه المثل وتجعل من الأدب معنى للحياة وقوة فى الضعف ونورا فى الظلمة وتخلع الجمال على الأشياء الجامدة الباردة فى الدير وتجمل حياتها الكئيبة بالأفكار النيرة والعاطفة .

ولم تعرض « تريزا » خلال هذا التهجد والتبتل لله ، عن الاستمتاع الحق بالحياة فكان تذوقها للفن والتأمل والفلسفة والصداقة والقراءة ، الى حب الأرض والطبيعة وتثقيف حواسها ، لتصبح أقدر على الاحساس بعظمة الله وجمال الوجدد عن طريق تلك الانفعالات النبيلة . انها تدرك ان اللذات الروحية قلما تنفصل عن المادية وان هذا الضرب من تواصل الأرواح ما هو الا القوة الفعالة فى الحياة ، وان الله قد وهبنا هذه الأرض الجميلة وتلك المحبة المتمثلة فيمن نحبهم ويحبوننا وفى تلك الكتب السماوية ، تلك الأشياء وان غابت عن أبصارنا فانما لتفتح امامنا قلوبا حانية رحيمة ذكية لها القدرة على تنشيط أنفسنا والسمو بها ، واعطائها المادة التى لا تقهر ــ مادة الروح ــ وان هذا الضوء الذى يحمل النور والدفء الى القلب وينفذ الى الروح ليحررها من أغلالها ووحدتها ، بهذه المثل وهذه الأشواق الروحية تصل تريزا بكتابها « حياة النفس » الى الأعماق وليكون آية فى عمق التفكير وجمال الأسلوب وتدفق العاطفة .

***

ولدت القديسة تريزا فى مدينة «افيلا» فى قصر قديم سنة ١٥١٥ وماتت فى دير « البادوتورم » سنة ١٥٨٢ ، وكان والدها الونسو سانشير دوسبيد ، وأمها بياتريس دورامادا من اعرق العائلات .

وكانت تريزا ، منذ طفولتها المبكرة ، تتصف بشجاعة وذكاء وخلق وايمان قوى . وفى لحظة كانت خلالها عرضة لارهاق روحى عظيم ،

وتحت تأثير قراءة قصص ، افعمت قلبها بنداء ملح خفى للتخلى عن مظاهر الحياة الزائفة وتكريس نفسها لعبادة الله ، غادرت تريزا منزل اسرتها خلسة الى دير الكرملين فى مدينة «افيلا» سنة ١٥٣٣ ، ولم تلبث ان اصبحت حياتها هناك مزيجا من الطقوس والتمارين الدينية ، ومعالجة الأمراض والرؤى الصوفية والأسفار والمداولات لاصلاح الأديرة من نظامها الرتيب واعادة تأسيسها من جديد .

وكان دير الكرملين الذى دخلته تريزا لعبادة الله ، تدور فيه المعيشة الى أقصى حد من البعد عن النظام فأسست مكانه ديرا جديد ، عرف بدير القديس « يوسف » وقد لاقت خلال قيامها بهذه الاصلاحات الكثير من المتاعب والاعتراضات ولكنها نجحت بفضل بعض رفيقاتها من الراهبات وبحماسة لم تتخل عنها البتة . وفي مدة عشرين عاما استطاعت انشاء سبعة عشر ديرا للنساء ، وخمسة عشر للرجال . وقد تبنت طرق هذا الاصلاح اغلب اديرة الكرميليت فى اسبانيا ، كما انتشرت فى العالم أجمع ، وانعم عليها البابا بأرفع الألقاب ، كما اعتبرت آثارها الأدبية من روائع الآداب .

***

تتحدث القديسة تريزا عن قصة حياتها فتقول : ان والدها كان مولعا بقراءة الكتب الدينية . وان أمها بدات تبث فيها تلك الثقافة ، وفى اخوتها منذ الصغر . وانها بدات تفهم تلك الدروس وهى فى سن السابعة يساعدها على هذا جو الهدوء الذى يسود الأسرة ، واب رحيم بالفقراء مشفق على المعذبين رءوف بالعبيد يعمل على تحريرهم أينما كانوا . كما لم تعلم عنه التفوه بما لا يليق من القول او القسم ، الا صادقا .

كذلك تقول عن أمها : ان امى كانت ذات فضائل كأبى أيضا اذ تحملت حياة مليئة بالمشقات والألم العظيم كما كانت جميلة ومتواضعة للغاية ، وماتت وهى فى الثلاثين من عمرها . وكان لتريزا ثلاث شقيقات وتسع اشقاء ، من بينهم واحد كانت تؤثره على الجميع وتقرأ معه الكتب الدينية . وحينما كانت تقرأ مع شقيقها عن الشهداء الذين تعذبوا فى حب الله كانت تتوق للموت فى حبه بحماسة وتتنافس معه فى الطرق التى سيصبحان فيها شهيدين . واخيرا قررنا كما تقول : « ان نكون ناسكين ، وكم كنا نجرب بناية صومعة فى حديقة منزلنا ؛ ولكن سرعان ماكانت تنهار الحجارة الصغيرة التى كنا نكدسها للبناء

وكم كنت احدث نفسى اننى سوف أصبح راهبة ، وأذكر ذلك حينما ماتت امى ، ولم اكن قد تجاوزت الثانية عشرة بعد ، وكيف ذهبت فى محنتى الى صـــورة العذراء حينما تحققت من خســـارتى فى فقـدها لأرجوها ان تكون أمى ، ولو اننى كنت اصنع هذا بالسذاجة ، ولكننى أعتقد اننى افدت منها ، اذ اننى كنت احس اننى كلمـــا اتجهت الى صورتها ، كنت أنال عونها ، واخيرا جذبتنى اليها كلية .

وكانت من عادة أمى ان تقرأ كتب الفروسية ، ولم تكن هذه القراءة لتعيقها عن واجباتها ، بيد انه بالنسبة الى كانت كما يرى أبى ذات ضرر وتولاه القلق لهذا ، وأنا أصرف ســـاعات كثيرة من النهار والليل فى قراءتها . ولـكن كانت تملأنى بنشوة خاصـــة ، ولم أكن أعتقد اننى سوف اكون سعيدة ، دون كتاب جديد .

وبدات اتانق فى ملبسى ، واتعمـــد ان الفت الأنظار وابذل كذلك اكبر عناية بانامل وشعرى ، واستعمل العطور وكل وسائل الاغراء ، واصبح لى صديقات من بنات عمى ، وكانت منهن واحـدة استطاعت التأثير على وساعدتنى على التمتع بكل أنواع التسلية التى كنت مولعة بها . ولـكن مع كل هذا فقد كنت أحرص على أن لا تمس سمعتى من اية ناحية .

وآلم ذلك والدى وشقيقتى الـكبرى التى أخذت تبين لى كم تؤثر عشرة السوء وخاصة فى الصغار اذ يكون اثرها اسوأ .. تبين لى هذا وانا ارى نفسى منساقة الى اللهو ، فاقدة تقريبـا لمزاجى المفطور فى التمسك بالفضيلة . ومن هنا تعلمت كم يكون الكسب الذى يستمد من العشرة الطيبـــة عظيما ، وبفضلها هـــانذا أعود الى عاداتى التى اكتسبتها فى الصغر ، من حب للعبادة والفضائل .

وتمضى تريزا فى قصة حياتها فتقول :

« ودخلت الدير ، ومكثت فيه عاما ونصف عام اعترانى بعده مرض عضال اضطرانى للعودة الى بيت أبى . واخـذونى بعد أن تماثلت الى الشفاء لأقيم مع شقيقة تسكن فى الضـــاحية ، ولـكم كانت بارة بى ولـكم كان زوجهـا يحنو على ، ويظهر لى اللطف . وحمـدا لله على نعمائه من بعد ، اذ اننى اجد العطف والانسانية فى كل مكان ، ولعلها الخدمات التى أديتها لربى قد اعيدت الى لأكون على ما انا عليه الآن» .

***

ولـكن المرض يعود الى تريزا ، وتكون عرضة لنوبات اغماء شديدة من اثر الحمى ، اذ انها كانت ذات بنية ضعيفة للغاية ، بيد انها تتغلب على المرض وتجتاز آلامها الى حياة جديدة لولعها بالمطالعة وقراءة الكتب المفيدة التى كانت تهبها الشجاعة والأمل والايمان وترسم لها السبل للتغلب على الفشل والصعاب ..

وقررت أخـيرا أن تهب حياتهـا للعبادة وللدير ، ولـكنها خشيت معارضة ابيها وهى تعلم حبه وايثاره لها واستشارته فاذا هو يقول لها : انها تستطيع ــ ولـكن بعد موته ــ أن تفعل ماتريد .

واعتراها لهذا غم شديد .. انها تخاف ان تفتر فى قلبها حماسة الايمان ، وان هذا التأخير تراه خطيرا · فقررت أن تنفذ تصميمها عن طريق آخر كما تقول ·

خلال هذا الوقت الذى كنت أعمل فيه بخفاء لتنفيذ غايتى اقنعت واحدا من اشقائى بزيف هذا العالم وقرر ان يصبح راهبا ، ونظمنـا الأمور على ان نذهب الى الدير فى الصباح الباكر حيث توجد هنـاك الصديقة التى كنت اكن لها الحب العميق . ولـكننى حينما غادرت منزل ابى احسست بمحنة رهيبة لم يكن الموت نفسه اشد منها ... وكانت كل عظمة فى جسدى تتمزق الى شطرين اذ لم يكن هذا الحب للعبادة بقادر على قهر حبى لابى واقربائى . وقد سبب لى هذا العمل ثورانا نفسيا لم اكن اتوقعه ، وما لم يتقدم الله ليضفى السكينة على قلبى ويمدنى بالعون فلن يستطيع تصميمى ان يدفع بى الى الأمام ولكن ها هو الله يعطينى الشجاعة لاقاوم واحارب نفسى ، وبهذا اخضعتها .

واثر التغيير والغذاء فى الدير فى صحتى ولو اننى كنت جد سعيدة ولكن لم يكن هذا بكاف كما يظهر واشتد على الألم وزادت عليـــه نوبات الم جديدة فى القلب وهـــكذا صرفت العام الأول فى الدير فى حالة يأس .

ودبر لى والدى الذهاب الى مدينــــة لتبديل الهواء مكثت فيهـــا مع الراهبة الصديقة عاما منها ثلاثة شهور قاسيت فيها من وسائل العلاج اشـــد الآلام · ولم يعلم بعد مقدار ما كنت أعانى ولكن الله بدل هـــذا الجفاف فى روحى ، الى حنان عميق عظيم . ولقد احببت كل طقوس الدير ، والحقيقة اننى كنت افكر فى الساعات التى كنت أقضيها فى كنس البيت ثم تحررى من هذا العمل الرتيب كان يملؤنى هـذا بفرح جديد يملؤنى عجبـا لاننى لم اكن افهم من اين اتيت . بل اننى حينما اذكر هذه الحرية اشعر انه ليس هنـاك اى عبء كنت أتردد فى حمله

اذا كان أمامى . فلقد علمت من التجربة المريرة اننى اذا أصررت على انجاز عمل من البداية وكان هذا العمل خالصا لله فانه سيجزينى فى هذه الحياة بطريقة لايعرفها الا الذين عرفوا هذه المسرات .

« أيها الاله العظيم يا مانحى السلام ، ان رحمتك التى أغدقتها على حتى اليوم لكافية فاننى لأرى أن رأفتك وعظمتك قد جعلتنى أتخطى الطريق الضال الى السبيل السوى » .

ثم تستطرد فى مناجاتها لله : وحينما أفكر فى رسالتى وتصميمى العظيم على أن أهب نفسى اليك فلا اعلم كيف اتجه ، بل اننى لأقول هذا دون دموع وانها لدموع من دم يكاد قلبى خلالها يتحطم »

وتهجر تريزا تلك الكتب التى جلبت لها الضرر بتعاليمها الصارمة . ويعطيها عمها كتابا للصلاة فتبتهج به وتقول : « اننى الآن لمبتهجة بهذا الكتاب وسأتبع تعاليمه بكل قواى طالما ان الله أعطانى نعمة الدموع ، وتضافرت عليها الأمراض وكان أقساها آلاما التهاب الأعصاب فاحتملتها بصبر جميل كما تقول : « وعجبت من احتمالى . وفكرت بهذا المصير الجميل الذى اعطانيه الله كرحمة كبرى ولقد أجمل الله صبرى بقراءة قصة أيوب وبلائه وكأن الله كان يهيئنى لهذا العذاب وكذلك اخذت اتمرن على الصلاة وأخيرا أصبحت قادرة على تحمل هذا العذاب واستعذبته فى سبيل الله وأصبح أكثر نجواى مع الله ومضيت أردد فى نفسى قول أيوب : « لم نحزن ؟ ان كل مانتلقاه من يد الله فهو خير ، ولعله يجنبنا الضرر » .

« وكان هذا الايمان يمدنى بالقوة على البلاء . وذات مرة بقيت فى غيبوبة لمدة أربعة أيام ولقد هيئوا لى فى الدير قبرا وبقيت هكذا فى عذاب اليم الى أن من الله على بالشفاء ولكننى بقيت شبة مشلولة لمدة ثلاثة سنوات ، وهكذا عدت الى الدير هيكلا عظميا ، واستقبل الدير فتاة حية بدل تلك التى كانت تنتظر الدفن ، وسررت لأننى سأعود الى الاعتكاف والصلاة كما أحب . ولقد أعطانى الله أعظم شىء هو نعمة الصلاة ونعمة أخرى هى نعمة الدموع ، وكم كان رحيما بى بذرف هاتيك الدموع .

يا الهى : كم اتوق الى الصحة والشفاء لأخدمك أكثر ، وحينما وجدت نفسى مشلولة ، ولا ازال فى ميعة الشباب ، وابصرت ما صنع أطباء العالم معى قررت أن أنادى أطباء السماء ليشفوننى . ولو اننى احتمل عذابى بغبطة ، ولكننى بحاجة لأكون قوية . اننى لا أحب العالم ، ولا ما فى العالم ولا شىء يبعث الى السرور الا اذا كان من عندك !

أيها الاله ، انني لأبتهل اليك الا تدعني أقف امامك فارغة اليدين ، طالما ان جزاء الانسان ، يجب أن يطابق اعماله .

هذه هي حياتي ، وهذا هو شرفي ، وتلك هي ارادتي ، وهبتها كلها اليك ..

وحقا يا مليكي لقد كنت تستعمل معي أرق قصاص فطرت عليه طالما انك تعلم ما الذي كان يسبب لي أقوى العذاب ، فتمحو ذنوبي بعفوك العظيم . وكنت كلما أقع في ذنب عظيم أتلقى الرحمة منك بدل العقاب .

وانه لمن البديهي ان تحب انسانا اكثر حينما نذكر صنائعه الجميلة الينا وماقدمه لنا من اعمال طيبة ولكن ، اليس من الحق أن نعتبر ، افضال الله علينا حين خلقنا ، من لا شيء ، ثم منحنا كل ما لديه من احسان ؟ ان الله ليظهر رحمة عظيمة بالانسان حينما يمنحه الشفقة والشجاعة ليناضل بتصميم وكل قواه ولن يتنكر الله لأى انسان يستحق هذه الرحمة وشيئا فشيئا ستقوى الروح حتى تنتصر . فلنسق حديقتنا اذن — حديقة التبتل لله — بالدموع وان لم تكن هناك دموع فلنسقها بالحنان وشعور الحب الخفي العميق .

« ان حب الله لن يتضمن في هذه الدموع أو هذا الحنان الذي نرغب ونجد السكينة فيه ، ولكن ، في اخلاصنا له ليمنحنا التواضع والعزم ، وفي حضرة هذا الصديق الطيب والربان القدير — الله — يستطيع الانسان أن يحتمل كل شيء . انه يساعدنا ، يمنحنا القوة ، لن يتخلى عنا أبدا في المحنة ، انه الصديق الحق » .

وليس من الحق أن نهمل الصلاة حينما يكون الفكر مضطربا ، أو نعذب النفس بالعمل فوق طاقتها ، هناك أعمال خارجية كأعمال الخير أو القراءة وحينما تكون النفس غير قادرة على تحقيق هذه الأعمال فلنأخذ عطلة دينية ، ولنترك الجسد يخدم الروح وليكن هذا التنقل أحاديث دينية أو نزهة في الضاحية . ان النفس لا تقسو بل تقاد بلطف لتنجح نجاحا عظيما . وان لم يرفع الله الانسان اليه ، فلن يستطيع أن يرتفع ، ولكن لعل أسمى مايجب علينا هو أن نعرف ما لنا من قيمة » ..

***

وأخيرا والقديسة تريزا تقف فى آخر كتابها لترف علينا منه أنداء من السكينة والايمان والرجاء ، وآلامها تعود اليها بعنف وكلماتها الأخيرة تتصاعد نحو السماء بروح قوية ورضا روحى عميق :

« ان الله قد أمدنى بعونه ورحمته حين علمنى ان الشدائد ماعادت تهمنى ، وليس هنـاك الآن اية ضرورة للحيـاة . ولهذه الشدائد ترانى اطلب اليه الآن بحرارة يا الله وبكل مالدى من ارادة — الموت أو العذاب — هما كل ما أطلب منك لنفسى . انه ليحمل الى روحى السكينة ان أسمع الساعة تدق مؤذنة بأن ساعة من حياتى قد ذهبت لأحس اننى اقتربت اكثر من رحابك .. لأراك .. » !

***

جوزفــين

نابليون ؟

« لقد كتب الله عليه قضاء .. ان قلبه لمليء بالدموع تسح دائمــا على الحب الضائع » .

« هوجو »

استطاع نابليون ان يقهر اوربا ذات حين ، وان ينتصر في اربعين معركة ، ولــكن هنــاك امرأة ولدت في « المــارتينيك » وربيت في باريس عــرفت كيف تغزو قلبه بأنوثتها ، وتمسك مشاعره وتمس كبرياءه ..

انها امرأة فقيرة كان اسمها «ماري جوزف روزتاشر باجيري» ولكنها كانت تعرف باسم جوزفين . ولقد كانت جوزفين اكبر سنا من نابليون بست سنوات . فقد كان لها من العمر ثلاثة وثلاثون عاما حينما التقيا لأول مرة ، ولم يتم نابليون السابعة والعشرين من عمره بعد . ولم تكن جوزفين بالجميلة التي تسترعي الأنظار ، أو الغنية التي يتهافت حولها الطلاب ، بل كانت أيما وأما لطفلين ، يتيمين بحاجة الى الحماية والرعاية ، وغارقة في الديون ..

بهذه العوائق القاسية كان على جوزفين أن تواجه الحياة ، وبهذه الظروف المرهقــة بدأ التعارف بينها وبين القــائد بونابرت . ولكن كان لدى جوزفين امكانيات أخرى واسعة لوفاء هذه الديون ولتذليل تلك العقبات ، فلقد كانت تعرف كيف تسحر الرجال ، وتتلاعب بعقولهم ، وكان لديها من هذا الفن ، الخبرة الكافية ، وتلتفت جوزفين حين أعدم زوجها الفيكونت بوهارنيه بالمقصلة في دور الهول ، ولم تستطع انقاذ

شيء مما كانت تملك فى «المارتينيك» فضلا عن انها لم تنج من الموت بعد ان سجنت ثلاثة شهور الا بعد سقوط روبسبير ، تلتفت لترى انهـــا أصبحت تعيش فى باريس مع طفلين يتيمين دون مورد أو معـــين الا بمعونة بعض الاصدقاء ، فعملت كما تعمل غالبا كل أيم ، وبدأت البحث عن زوج جديد .

وتحدث اليها صديق عن نابليون ، انه فقير ولـكن يبدو انه موعود بمستقبل باهر ــ وانه سوف يبنى لنفسه اسما ومجدا فقررت جوزفين اذ ذاك أن تقابله . ولكن آنى لها هذا اللقاء ؟ ؟

وفكرت جوزفين الذكية الفؤاد ، واستطاعت أن تنفـــذ الى قلب القائد الشاب بطريقة بارعة ، فلقد أرسلت اليه ابنها الصغير البالغ من العمر اثنى عشر عاما يرجوه اعادة سيف والده الذى ضبطه الجنود لدى التفتيش عن الســلاح . فرضى نابليون بذلك وقد مس الصغير اليتيم أعمق مشاعر الرحمة عنـــده . وفى اليوم الثـــانى زارت أم الصبى بونابرت وقـــد تسلحت بكل مالديها من سحر وفتون ، ولتشكر له والدموع تملأ عينيها نبل عواطفه وفخر فرنسا بالقائد الشجاع الذى أعاد الســلام والأمن الى باريس بعد ثورات أهلية دامت سبع سنوات وصبغت أرضها بالدماء .

وافتتن بونابرت بجوزفين وشخصيتها الآسرة ، وتحقق انها تفوقه فى المـكانة الاجتماعية . وحينما دعته الى تناول الشـــاى فى بيتها ، أحس بفخر واعتزاز . وفى هذه الزيارة لاحظ نابليون ماينطوى تحت طواهرها من فقر وعسر . ولـكنه لم يأبه لذلك ، فقد أصبح ذا مركز رفيع ، ولديه مايكفل له طيب العيش . أجل ، لقد كان بونابرت يحب الغنى ، لا الأغنياء ، وكان يقدر الرجال بمواهبهم ، والنســاء بفتنتهن وذكائهن .

فى تلك الدعوة عرفت جوزفين كيف تأسر لبـــه ، وترضى طموحه الى المجد ، فقالت له : انه سوف يصبح أعظم قائد فى التـــاريخ .. وخلال شهور من هذا اللقاء أعلنت خطبتهما .

والهب حب جوزفين قلب بونابرت ، وتناهى حتى حنـــاياه بحنان خفى يفوق كل تعبير ، وملأت صورتها خياله وخواطره .. ومال اليها يبثها سرائره وآماله وثقته بنفسه وايمانه قائلا :

« يخيل الى رجال الحـكومة ــ يا جوزفين ــ اننى أحتـــاج الى حمايتهم ، ولـكنهم سوف يعلمون غدا من يطلب الحماية ، فان الذى

سوف أنال به أقصى الغايات ، انما هو سيفي هذا الذي اتقلده . فما قولك عن هذا اليقين ، أليس هو منبثق عن ايمان يتيه صاحبه عزة ، وثقة بنفسه وقدراته ؟

***

ويحل اليوم الموعود لزواج بونابرت من جوزفين ، لنراه ، وهو الذي كان شعاره المحافظة على الوقت أبدا والقائل لا تفرط بوقت ولو مقدار ثانية ، والذي كان يقول ايضا : « قد أخسر المعارك ، ولكنني لا اضيع دقيقة واحدة غافلا او متراخيا » نراه يتأخر عن موعد الحضور الى الكنيسة لاجراء طقوس الزواج . فهل اراد أن يشعر جوزفين بعلو منزلته ، وهو الذي قيل انه طمع بتزوجها لكي يدخل الى حظيرة المجتمع الفرنسي ؟ قد يكون هذا ، غير ان بونابرت قد شغف بجوزفين حبا ، جرى في روحه ومشاعره مجرى طموحه وامانيه العظام في المجد وكسب المعارك ..

واضطر بونابرت لفراق جوزفين بعد زواجه منها بثماني واربعين ساعة ، حين ذهب ليحارب في ايطاليا ، وعلى الرغم من أن جيشه كان جائعا ، غير انها كانت غزوة صعدت باسمه الى الأوج وكهربت القارة الأوربية التي لم تشهد قتالا كهذا منذ عصور ، ولكن بونابرت لم ينس خلال هذه اللحظات الحاسمة جوزفين . ولقد كتب اليها في المراحل الاحدى عشرة الأولى التي قطعها حين لحق بجيشه المرابط في نيس ، أحد عشر كتابا غراميا ، وأية كتب كانت تلك التي أوحتها تلك العاطفة المتأججة ، على صليل السيوف وصخب المعارك :

« جوزفين » :

« لقد تركت باريس خلفي ، وتركت فيها سعادتي .. وأما أمامي فبلاد العدو حيث انال المجد ولن يفوتني ، بلى .. انه المجد للقائد الموعود حقا ، ولكن من الموحي به ، الدافع له ان لم تكن جوزفين ؟ ولمن كان يبغي النصر بونابرت ان لم يكن لها ؟ ؟

ويقول نابليون في رسالة ثانية لمعبودته :

« جوزفين ...

« لقد الهمتني .. ونفثت في فؤادي حبا سلب مني الرشاد ، فما عاد يطيب لي العيش أو الرقاد . وصرت لا أحفل بالأصدقاء ، ولا بالمجد . ولكن النصر يهمني ، وسأكافح له ، لانه يرضيك ولو لم يكن

هذا النصر الا لأجلك ولمرضاتك ، لتركت الجيش ، وقفلت راجعا ، الى باريس لأطرح نفسى على قدميك ..

فلقد غمرتنى بحب لا حدود له ، وسحرتنى ، وألهبت روحى فما تمر بى ساعة دون النظر فيها الى صورتك أو غمرها بأحر العواطف » ..

ولـكن جوزفين لم تكن تبالى بهذه الرســائل الثائرة المتأججة ، وتركت القائد المظفر ـ بونابرت يتحرق بجنون عليها ، اذ كانت مشغولة عنه بحب رجل آخر ..

ودخـــل بونابرت ميلان منتصرا .. وتساءل أين جوزفين ؟ لم لم تحضر لتشاركه فرحة النصر ؟؟ وأرق ساعات ، وجفاه النوم .. أهى مريضة أم شغلها عنه آخر ؟ ثم قام ليكتب اليها ، «ستحضرين ستكونين بجانبى أسرعى .. استعيرى جناحا تعالى تعالى » وعيل صبره .. وتوقع أمرا .. فعاد يكتب اليها منذرا ، « هل لك عشيق غر لايزيد عمره عن تسع عشرة سنة ؟ فاذا كان ذلك ، فخافى يد اوتيلو الجبار» ـ وضحكت جوزفين وهى تقرأ هذه العبارات ، وقالت لصديقها تاليران : يالسلامة قلب بونابرت .

***

واخيرا استجابت جوزفين لتوسلات بونابرت ، فكتبت اليه تعتذر عن رفضها العيش فى المعسكر لمرضها . فكتب اليها معلنا أسفه ، بانه قد أساء اليها وهى مريضة .. ثم كتب الى اخيه جوزيف يقول :

« زوجتى مريضة ، والهم يؤذينى اناشدك ضارعا أن تكتب الى ، وان ترد السلام الى قلبى .. أنت تعلم اننى التهب غراما . وان جوزفين هى السيدة التى أعبدها . فاذا شفيت واصبحت قادرة على الســـير فاحضرها فاننى ليبرح بى الشوق اليها .

لاتدع رسولى يمكث بباريس أكثر من ست ساعات ، ثم أعده ليعيد الى الحيــاة » .

ونجح جوزيف فى اقناعها بالسفر معه الى ميلان .

***

ويضطر نابليون الى الابتعاد عن جوزفين ولكن ليعود فيكتب اليها :

« عرانى الهم والحزن منذ ابتعادى عنك فسعادتى فى اقترابى منك وما فتئت أســتعيد فى خواطرى دموعك وغيرتك ، ولا يزال ســحرك يزيد قلبى لهيبا وجوانحى تأججا ، فمتى أصبح طليقا من قيود القيادة

قريبا منك غارقا فى حبك قادرا على ان اثبت ولعى بك ؟! كونى اقــل جمالا واقل فتنة . ولكن لاتكونى بكاءة فما تذرف عينــــاك الدموع الا لتضرب فى أحشاء قلبى ، تعالى لتدركينى ، فاذا مت ، قلت ، لقـــد قضينا أيام سعادة وهناء .. »

وأحس نابليون بالفتور فى رسائلها فكتب اليها ثائرا : « الا ماذا هناك هل مس شرف هذا القائد الذى حمل الأعباء الجسام والذىخاض عباب المعارك والذى يطمع فى قيادة العالم : « عدت لا احبك ، صرت أمقتك ، من هو هذا الذى يلهيك عن زوجك ؟ احذرى ياجوزفين !. »

ولكن يظهر ان اسر جوزفين كان امنع على بونابرت من أسر القــواد وانه ليسطر اليها هذه العبارات المليئة بالشجن والارهاق والحزن :

« وصلت الى ميلان ومشيت مسرعا الى بيتك تاركا خلفى كل شىء لاراك فلم أجدك ، واننى انا الذى ركبت الاهوال وحملت نفسى عــلى المهالك ، اعرف كيف اداوى نفسى من الأحزان ، واصبر على متاعب الحياة ، لاتكفى عن الملذات ، فالسعادة لك ، والعالم يكون سعيدا اذا ما اعجبك ، واما زوجك فهو البائس الشقى » .

ثم يكتب اليهــا :

« أخطىء(١) حين أطلب اليك أن تبادلينى الحب فمن ذا الذى يقول : ان الشريط يوازن الذهب ؟ لم تمنحنى الطبيعة من الحس ما أقدر به على اجتذابك ، ولكن الذى استحقه منك هو الرعاية والكرم ، وأنا المولع بك دون سواك ، وارضى بأن أكون نافعا لك فقط .. آه ياجــوزفين .. آه ياجوزفين » .

واخيراتولاه اليأس من جفائها، فانصرف عنها الى فتاةشقراء دعاها الى تناول الشاى معه حينما كان يحارب فى مصر .. وشـــغل بهــا عنهــا ...

***

وتنصرم الأيام على نابليون لتضطره الأحداث الى العودة الىفرنســا للقبض على زمام الامور فيها ويصل القائد الى باريس ويفكر : هــل ستستقبله جوزفين باسمه فى مخدعها ذى المرايا ..؟

---

(١) نابليون للمؤلف مودنج ترجمة العلامة العرب المرحوم عادل زعيتر .

ويسطع نور الفجر وعربته فى الطريق المؤدية الى بيته فما يجد على عتبته جـوزفين .

وعلمت جوزفين بعودته وكانت لدى صديقها غوية .. كانت تعرف انه سيغضب عليها ، ولكنها كانت على يقين انه لن يعسر عليها ارضاؤه وهى التى تتقن فن اللعب بعقول الرجال .

فعادت مسرعة الى بيتها ، ثم سارت الى لقائه لتباغته قبل أن يقص عليه أهله ماكان من تهتكها وهى متزينة بكل وسائل التجميل والاغراءولكنها لم تستطع اللقاء به . ونصحه الأصدقاء بعدم طلاقها حذرا من سـخرية باريس ، فلم يقبل ، واصر على طلاقها .

وجرى بينهما لقاء عاصف انتهى بطرده لها من غرفته ولكنها لم تيأس بل استعانت بولديها ، وبدموعها وظلت تبكى معهما بتضرع اليه أمام بابه، حتى مطلع الفجر . وهنالك رق قلبه لها وفتح لها الباب من غير أن يؤنبها بكلمة واحدة .. ثم اوفى ديونها التى بلغت المليونى فرنك .

ولكن جوزفين لم تتخلص مع هذا من المتاعب العائلية . اذ كانتذات ثقافة ارفع من ثقافة شقيقات نابليون مما جعلهن حسودات لها غيـورات منها وكن يعتقدن أنها تحتقرهن . فاصبحن يكرهنها .. ويحقدن عليها . واقسمن أن يعكرن حياتها ، وشرعن يخترعن القصص للاستهزاء بها .. ويعملن على طلاقها بكل ما أوتين من قوة ليتزوج من فتـاة أخـرى اصغر منهـا سنا .

ولقد رفع نابليون جوزفين معه الى العرش ، ووضع على رأسـها التاج بيديه ، رغم كل ماوصله عن سلوكها واستهانتها بعواطفه ، ولكن الضرورة كانت تدفع به الى الزواج من غيرها ليؤمن وريثا للعرش واسر لها ذات يوم عن فزعه وحزنه عندما يتصور أنه سوف يموت بلا وارث . ولم يخف آله عن تاليران حينما حرضه على الزواج . فقد كان يرى ، ان افتراقه عن جوزفين انما هو افتراق عن سروره البيتى وسعادته ، وانهـا مطلعة على أحواله النفسية أكثر من أى انسان – كمـا قال – وان فى طلاقها انكار للجميل ، فضلا عن أنه سيجد من العناء فى اختيار فتـاة تخلفها فى ذوقها وطبائعها . ولكن لم يكن بد لنابليون من ولد تنجبه له سليلة ملوك .

وجمع نابليون أهله . وكانت جوزفين حاضرة .. وقرات الشماتة على وجوههم ولكنها تجلدت وابدت ثباتا عجيبا .

وقال لهم نابليون والحزن ملء جوانحه :

« الله يعلم درجة مافى نفسى من الألم لصنع ذلك . ولكن كل تضحية تهون فى سبيل فرنسا . أدخلت الامبراطورة الهناء الى قلبى مدة خمس عشرة سنة ، وتوجتها بيدى ، فأرى أن تكون ذات مقام رفيع ، وان تظل حاملة لقب امبراطورة ، راجيا أن تعدنى صديقا لها مدى الحياة . »

وامضى الجميع وثيقة الطلاق .. وانسحبت جوزفين ولكن لتخونها شجاعتها ولتظل تذرف سخين الدموع أمام نابليون طيلة الليل مسدلة شعرها على وجهها وكتفيها .

وعاد نابليون الى قصر التريانون ، وانقطع ثلاثة أيام ، غارقا فى أسى عميق ، لم يستقبل فيها احدا ، أو يقرأ صفحه أو يمل امرا ، او يسجل خاطرة .. ووقفت تلك الآلة التى دارت مدة خمس عشرة سنة .. ثم زار جوزفين فى الماليزون ، وحين عاد الى قصر التويلرى كتب اليها متوسلا — وقد راعه حزنها وسقمها — أن ترفق بنفسها اذا كانت تحبه ، ويطلب اليها ثبات الجنان ثم ينبئها عن الفراغ الذى تركته فى قلبه ، وانه أصبح غريبا بين الناس اليفا مع احزانه :

« عدت الى قصر التويلرى ، فوجدته على رحبه ضيقا ، وبدا لى خاليا ورايتنى منفردا مع من فيه من الناس » .. ثم يكتب لها فى رسالة ثانية: ثانيـــة :

« بلغنى الخادم انك بكيت هذا الصباح . لا تنسى ان لنا فى الماليزون اطيب الذكريات »

وعبر عن وفائه واخلاصه اصدق تعبير حين خصص لها دخلا يبـلغ ثلاثة ملايين فرنك فى كل سنة .

واشرب قلب نابليون حب جوزفين قريبة كانت منه او بعيدة وفاض عليه كالبحـر .

« أحب ان أزورك ، على أن تكونى قوية لاضعيفة ، اشعر بضعف والم مع ذلك ، لااتناول طعامى الا وحيدا ، فالى اللقاء ياجوزفين » .

***

بهذا المقدار من الحنان ورقة القلب والغفران عامل نابليون جوزفين وبهذا الوفاء قابل عقوقها له والاستهانة بمناجاته أيام كان صادقا باخلاص لها فى ميلان ، وكانت تخونه فى باريس ، بل لقد أعرب لها عن وفائه .. تعبيرا أقوى واصدق حين خصص لها دخلا يبلغ الثلاثة ملايين فرنك فى كل عـام .

بعد وقت قصير من هذا الطلاق ؛ تزوج نابليـــون من مارى لويز — الأميرة النمساوية — وكان اغرب مافى هذا الزواج ، هو أن مارى لويز قد

نشأت ـ ككل النمساويين ـ على كره نابليون . وحين طلب نابليون يدها ، صلت الى الله ألا يقدر لها أن تتزوجه ولكن والدها أصر على أن تتزوجه لعوامل سياسية ، وهكذا تزوجته دون أن تراه ، أو تعرفه من قبل . ولكنها لم تهتم به . وحينما بدأ يخسر المعارك ، هجرته وأحبت ضابطا نمساويا بل كانت تحض ابنه على كرهه .

كان حب نابليون الأول والأخير والحقيقى ، هو حبه لجوزفين . واذا عدنا لهذا الحب وأثره فيه لوجدنا له الأثر العظيم . فقد كان دافعا له الى النصر لأنه يرضيها ـ كما رأينـا فى احدى رسائله الواردة فى هذا البحث ـ من احدى ساحات القتال . وفاتحا باب المجد له على مصراعيه اذ فتح ايطاليا وهو فى السابعة والعشرين . والهمه هذا الحب وملأه بالثقة والبطولة والايمان بنفسه . الم تقل جوزفين فى لقائهما الأول :

« انه سيصبح اعظم قائد فى التاريخ ..؟ »

***

بلى ، لقد أصبح نابليون ذلك القائد الفرد فى التاريخ ، ولكن هـل استطاع أن يضمن المستقبل ذلك المجهول كما يقول هوجو ايضا ؟:

« كلا ان المستقبل ليس لأحد ، انه بيد الله .

كل ساعة تدق هنا فى هذا الكون تقول لنا وداعا أيها السيد .

المستقبل ، المستقبل هذا المجهول ..

كل مافى هذه الحياة : المجد ، الثروة ، القوة العسكرية ، التيجـان المتألقة المطامح المحققة ؟

كلها لا تستقر على أكتافنا الا كما يستقر الطير على حافة منزلنا » .

مدام رولاند

١٧٥٤ – ١٧٩٣

مازال النداء للحرية يتجاوب عبر التاريخ كلما أطاحت المقصلة بضحايا وشهداء ، نداء جهير ، نداء بليغ حى ، بان الدم المسفوك لن يجف حتى يعود ، غضبات تثور ، ونار تلفح ، طال الزمن أو قصر .

انها صرخة الحرية تهز بها « مدام رولاند » من اعلى المقصلة اسماع الزمن ، أسماع الطغاة ، والدماء تصبغ أرض فرنسا لعشر سنوات من فجر الثورة حتى غروبها لتهوى برءوس ، وتزلزل جبروت ، وتخط مقادير .

***

ولدت جان مانوى فلاتيون التى عرفت فى تاريخ الثورة الفرنسية باسم مدام رولاند ، سنة ١٧٥٤ فى باريس واعدمت حياتها المقصلة فى باريس سنة ١٧٩٣ .

كانت جان مانوى وقد لمح فيها والدها – النحات الشهير – نبوغا مبكرا اتاح لها حرية واسعة فى تلقى العلم ، فتاة موهوبة اكبت بشغف على دراسة الرسم والموسيقى والأدب الكلاسيكى والرياضيات ، كماكانت تتمتع الى حد كبير بحرية الفكر وقوة المنطق والخيال .

ومرت بجان ظروف تعسة اذ أصيب والدها بتدهور مالى كما فقد زوجته .

وكان لابد لها خلال هذه الأوقات العصيبة المليئة باليأس والمتاعب ان تقبل الزواج من رولاند الذى كان يكبرها بعشرين عاما رغم ارادة ابيها وكان رولاند فيلسوفا مفكرا ايضا .

وعلى أن جان كانت تحمل لزوجها احتراما خاصا ، فان ذلك لم يحل دون أن يكون لها محبون آخرون من اصدقائهما . غير انها شغفت حبا ببيزوت وآثرته على غيره .

وفي سنة ١٧٩١ ، أقامت في باريس ، وكان صالونها في الجينجود ملتقى كبار الساسة وعلية القوم من اليعقوبيين والجيرونديين والمونتانيارد على السواء .

وكانت تحلم بأن ترى عصر المساواة ينبثق امامها كما كانت تتوق ، ان تشهد اعلان تنازل الملك .

وتحولت بعد هذا الى مبدأ الجيرونديين « كبيزوت » .

ويتجلى نفوذها السياسي سنة ١٧٩٢ — ١٧٩٣ حين استطاعت أن تصل بزوجها الى السلطة ، فيصبح وزيرا للداخلية مما جلب لها عداء المونتانيارد .

وتحاك حولها التهم ويعزى اليها تهمة الاتصال بالسفير الانجليزي ، فتدافع عن نفسها أصدق دفاع غير أن سقوط حزبها جر معه الخراب لها ولزوجها .

وحوكمت في حزيران سنة ١٧٩٣ وقامت هي بالدفاع عن نفسها ، دفاعا بليغا أمام المحكمة غير أن دفاعها لم يجد ، وحكم عليها بالاعدام بتهمة تأييدها لثورة الأقاليم .

وماتت مدام رولاند .. أعدمت بالمقصلة وهي ترسل صرختها الخالدة :

أيتها الحرية :

أيتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ؟

مدام دوســتايل

١٧٦٦ – ١٨١٧

تعد مدام « دوستايل » من القوى الفكرية العـالمية التى كان لها أثرها العظيم فى كبار رجال عصرها وفى توجيه تيـاراته السياسـية ، ومعالجة مشلاته الفكرية والاجتماعية الكبرى ، ذلك الأثر الذى لم يقل عن أثر المفكرة اليونانية الشهيرة « اسبازية » التى اثرت فى حياة اعظم رجال الفكر والتاريخ اليونانى : فى « بركليس و سقراط » .

ولقد قامت حياة هاتين المفكرتين دليلا ساطعا على بطلان الرأى : بان المراة فى ميدان الفكر ، لاتناقش المشكلات بقدر ماتناقش الرجـال لان الرجل مشكلتها ، وان ثمة حـرب بين العبقـــرية والأمومة كما يرى « شوبنهاور » ففى سن مبكرة تجلت عبقرية مدام دوستايل فىالتعليق على كتاب « روح الشرائع (١) » لمونتسيـــكو ، وتحليلها لآراء روســو الاجتماعية فى مؤلفاته ، كما تعرضت لمعالجة ادق قضايا الفكروالثورات والمجتمع فيما بعد فى مؤلفاتها .

وعرفت مدام دوستايل – بونابرت (٢) – وحـاولت أن تدنو منـه وأمطرته برسائلها غير أنه كان يردها بلطف . ولقد وصفته وصفا بليغا فى كتبها واقرت انه لم يملأ جوانحها فيمـــا عرفت من رجـال عظام كبونابرت :

« أشعر برفعته كلما تكلم . واشم فيه رائحة التهكم الخفى الـذى لم يســلم منه كبيرولا صغير ، ولا مجـد ولا ضعة ، ولا غرو . فهو غير متحمس لاعجاب الناس به ويستخف بالأمة التى طلب اصواتها ».

(١) نقل الى العربية بقلم العلامة العربى المرحوم عادل زعيتر .

(٢) نابليون للمترجم أيضا .

ثم تقول : أراني بين الخوف والرجاء كلما نظرت اليه . واحس انه لا يؤثر فيه بالعواطف ٠ قامت ارادته على عده نفسه فريقا وعده الناس فريقا آخر . ليس فى مبادىء الرحمة والعواطف والديانة ، والمثـــالية مايثنيه عن عزمه ولا يبالى بغير مصلحته ، فاذا ما توافقت هذه المصـــلحة والخير ، كان لثباته أطيب النتائج »

ولم تستطع مدام دوستايل التأثير على نابليون قط اذ كتبت له اثر عودته من جزيرة البا الى باريس تعرب عن اعجابها به وتعد بتسـخير قلمها له ٠ اذا ما رد اليها مليونى الفرنك المدينة فرنسا بهما لأبيهـــا والتى أساءت بذلك الى سمعتها كثيرا . ولكنه أجابها : بانه ليس من الغنى بحيث يستطيع ان ينفذ ما اشترطته . وكان نابليون يخشى مدام دوستايل ايضا . ولقد عرف انه أرسل الى فوشين أثنى عشر أمرا حولها وحول نفوذها واجتماعات الحى الارستقراطى ومجالسه ، ثم لم يلبث ان اقصاها هى ومؤلفاتها عن باريس ٠

***

كان لمدام « دوستايل » نفوذ عظيم فى سياسة فرنسا فلقد أصبح « تاليران » وزيرا بفضلها ، ولهذا عدت من القوى المحركة فى أوربا فقد كان يقال : هناك ثلاث قوى فى أوربا لها وزنها ، روسيا وانجلترا مدام « دوستايل » ٠ وكان هذا يتفق مع ما كان لها من أثر فى تقرير مصـير نابليون الى حد بعيد ، فلقد لجأت مدام دوستايل خلال السنوات العشر التى قضتها فى المنفى فى تدبير المؤامرات ضده فى كل قطر لجأت اليه. فهى حين هربت من « فيينا » الى « بطرسبرج » لم تستطع كبح طموحها السياسى والأدبى بل اخذت فى حبك مؤامراتها ضده وسهلت الاجتماع بين « برنادوت » والامبراطور اسكندر ذلك الاجتماع الخطير الذى انتهى بعقد تحالف بينهما كان من نتيجته أن تقرر مصير نابليون .

« آن لويز جرمين نيكو » البارونة « دوستايل » هى اديبة ومفكرة فرنسية ولدت سنة ١٧٦٦ وتوفيت سنة ١٨١٧ وابنة كل من « نيكو » وزير الامبراطور لويس السادس عشر ، وسوزان كورشود التى كانت سليلة أسرة عريقة من الريف فى مقاطعة فودوا ٠٠

فطرت جرمين منذ طفولتها على ذكاء لامع واحساس مرهف ، ومواهب تبعث على الاعجاب . وتعرفت فى صالون أمها على عدد من مشاهير العصر منهم : مارمونتل ود المبرت وديدرو ورانيال رئيس الاساقفة ، وتومـــاس

بوفون ، وبرنارد أن دوســان بيير .. وكتبت وهى فى سن الحــادية عشرة ــ وما تزال طفلة مدللة ــ ونظمت مدائح وقصائد . وفى الخامسة عشرة علقت على كتاب « روح الشرائع » ثم بدأت بعد هذا تكتب بالتدريج اخبارا وتمثيليات ودرامات شعرية .

وفى سنة ١٧٨٦ ، تزوجت البارون « دوستايل هولستين » وفى سفارة السويد بباريس حيث كان عمله · لمعت هناك فى البلاط بمواهبها الأدبية وبدأ انتاجها الأدبى بكتابة أبحاث شائقة عن شخصيات مؤلفات جان جاك روسو سنة ١٧٨٨ .

وفى هذا الوقت اشتعلت الثــورة ونفى ابوها « نيكو » عدة مرات ولكنه عاد أخيرا ليستقر نهائيا فى كوبيه بسويسرا ·

وخلال هذه السنوات الحافلة بالعذاب والأحداث الجسام ، اظهرت مدام « دوستايل » كثيرا من الشجاعة والجرأة ولقــد حاولت عبثا أن تخلص الملك والملكة مارى انطوانيت من الحكم بالاعدام « ذكريات الدفاع عن مارى أنطوانيت » وهى رسالة فى المأساة ، ولكنها مع هذا نجحت بنفوذها فى انقاذ كثير من الأصدقاء من المقصــلة ، وبعــد يوم الستة الترومادور انغمرت فى السياسة وكان صالونها فى شارع دوباك ، ملتقى للاقطاب المحافظين والأحرار · وفى سنة ١٧٩٥ نشرت مؤلفها « خواطر فى السلام » ثم رسالة » فى الأحزاب » وذلك فى نفس العام أيضا ·

ولكن سرعان ما حامت حولها الشكوك ، فغادرت باريس الى كوبيه « حيث نشرت مؤلفها الشهير » :

« اثر العواطف فى سعادة الأفراد والأمم » سنة ١٧٩٦ ..

وفى سنة ١٧٩٧ عادت ثانية الى باريس لتقع فى حب عنيف عاصف مع « بنجامين كونستانت ».

كانت مدام « دوستايل » تحلم بالسيادة كما كانت طموحة الى أبعد حــدود الطموح ولقد خيل اليها انهــا ستطوح ببونابرت لدى حكومة الديركتوار · ولكن ؟؟ سرعان ما تبددت تلك الآمال ومنذ ذاك الوقت ، لم تعد حياة مدام دوستايل غير سلسلة متلاحقة من الاضطهاد والنفى فحينا تكون لاجئة سياسية فى كوبيه أو جنيف أو ويمار حيثما تعرفت على « جون » و « شيلر » و « ويلاند » وفى برلين استقبلت من قبل الملكة لوزير . وفى ايطاليا حيث شاعت شهرتها بالجمال الفاتن .. وابعدت بعد هذا الى مسافة اثنى عشر ميلا من باريس ثم نفيت منها ثانية فذهبت الى ڤينا ثم عادت لتقيم قرب « بلوا » وهنا طردت من جديد ، وظلت

الشرطة تتبعها من مدينة الى مدينة مدة ثلاثة أيام حتى وصلت فى هروبها الى بولونيا ، فروسيا ، فالسويد .

وفى انجلترا أمضت مدام دوستايل سنى نفيها العشرة فى اضطراب وقلق ، والفت خلالها قصة « الأسير » .

وخلال هذه الفترة ، مرت بحياتها أحداث هامة أخرى . ففى سنة ١٨٠٢ ، مات زوجها الذى اقصيت عنه لعدة سنوات . وفى سنة ١٨٠٤ مات أبوها وفى سنة ١٨١٢ تزوجت سرا وهى فى السادسة والأربعين من ضابط شاب فى الثالثة والعشرين من عمره « البرت دوروكا » . وفى سنة ١٨١٣ مات أحد أبنائها . وكانت هذه الفترة بالنسبة لمدام دوستايل من الفترات المثمرة بآثارها الأدبية ففى سنة ١٨٠٠ ظهر مؤلفها الأدبى القيم الذى كان بتعليقاته على الاوضاع الاجتماعية قد فتح آفاقا جديدة للفكر الفرنسى . وفى سنة ١٨٠٣ ظهر لها مؤلف ادبى آخر فى الاحتجاج على خنق حرية الرأى ثم ظهر لها مؤ لف آخر هو ترجمة عن حياة والدها مسيو نيكو وعن حياتها الخاصة . وفى سنة ١٨٠٧ وفى كورين فى ايطاليا نشرت بحثها : « المرأة حين تنبثق لها السعادة من خلال المجد والحزن ».

وفى سنة ١٨١٠ ، وفى ألمانيا ظهر مؤلفها : انتشار الفن والحضارة الالمانية وكان كالأول يبشر بعصر الرومانتيزم ولكن حالما ظهر لها هذا الكتاب ، لم يلبث ان صودر من قبل البوليس الملكى ، ولم يطبع ثانية الا فى لندن سنة ١٨١٣ .

وبعد « المائة يوم » عادت مدام دوستايل الى فرنسا ولكن كانت قد أصيبت بضعف وخانتها قواها فذهبت الى ايطاليا للاستشفاء ، ولكن بعد اقامة قصيرة عادت الى باريس وماتت هناك فى الواحدة والخمسين من عمرها وتركت مؤلفين خطيرين مهمين لم ينشرا وقد نشرهما أولادها بعد موتها وهما : «أسباب الأحداث الخطيرةللثورة الفرنسية» سنة ١٨١٨ و «عشر سنوات فى المنفى » سنة ١٨٢١ . وجمع ابنها خلال سنة ١٨٢٠ ــ ١٨٢١ ، مؤلفاتها الكاملة كما اتبعها بمؤلفاتها التى لم تطبع فى حياتها سنة ١٨٣٦ ولم تكن مراسلاتها قد جمعت بعد .

وقد اعتبرت « مدام دوستايل » من أعظم الشخصيات فى الأدب الفرنسى ان لم يكن لأهمية مؤلفاتها ، فللنفوذ الذى كان لها فى ذلك العصر .. ولقد شقت مدام دوستايل مع شاتو بريان الطريق للأدب الحديث الذى اقتبس منه الأدب الألمانى قسطا طيبا من الأسس الفكرية فى السياسة والأخلاق والأدب لاولئك الكتاب ممن عاشوا خلال القرن التاسع عشر .

فلورنس نايتنجيل

١٨٢٠ ـ ١٩١٠

لنكون أبطالا وعظماء ، يجب ان نفكر افكارا عظيمة ، وتكون لنا حرارة الايمان للتغلب على العوائق والسير فى الطرق الشاقة للوصول الى الهدف ..

ولم تكن هذه الأفكار وذلك الايمان لفلورنس نايتنجيل الا صفة ورمزا لتسلكها فى زمرة الخالدين ؛ ويكون لها بين قومها الانجليز من شعور القداسة ما « لجان دارك » منقذة فرنسا بين الفرنسيين ولتعطى العالم افضل ما فى الانسان ، فتأسو بجراح ، وتعيد الأمل ، وتهب الحياة مثلا ، وقوى جديدة ..

**

حين اعلنت فلورنس نايتنجيل لوالديها انها ستهب نفسها لخدمة الانسانية المعذبة ، قابلا النبأ باستنكار : فالتمريض آنذاك ، لم يكن معترفا به كعمل من الأعمال اللائقة ببنات الأسر ، فضلا عن أنه مهنة لايمارسها الا الرجال ، وليسوا مع هذا من الطبقة المهذبة ، وما لهذا نشأها تلك النشأة الارستقراطية وأتاحا لها تلك الثقافة العالية .

**

كانت الفتاة أجمل بنات أسرة « نايتنجيل » وأوفرهن علما . تحسن عدا العلوم والفنون عدة لغات . وكانت أمنية والدها لها ان تحتل مكانة رفيعة فى المجتمع . ولم لا ؟ فقد كانت لامعة الذكاء والشخصية ، الى سجايا كريمة رفعتها الى مركز الصدارة بين الفتيات ، والتقدير من جميع الأوساط ؛ وما تبقى بعد ذاك ؟ ولكن هذا مالم تكن ترغب فيه .

فقد كانت تمقت المظاهر والتزلف . كان لها رايها المستقل ، ومزاجها الخاص ، وهو التحرر من ذلك المحيط والاندماج فى صميم الحياة لتعرف الناس فى أوقات الشدة والألم والجراح ، حين تستحيل تلك الحياة يأسا ودموعا ..

ولقد تميزت « فلورنس » على اترابها منذ الصغر ، بعاطفة الرحمة . فكثيرا ما شوهدت تعطف على البؤساء وتضمد جراح الحيوانات الصغيرة . وفى السادسة من عمرها قالت : « لكانها تسمع نداء من السماء يهيب بها الى حمل رسالة الرحمة الى العالم » : ويتجاوب هذا النداء فى أعماقها يقوى كلما نمت ..

وحين بلغت العشرين من عمرها ، تطلعت الى الزواج والاستقرار — واحبت مرتين — ولكنها ما لبثت ان نبذت الفكرة قائلة :

ان الحياة الزوجية ليست هى كل ما تطمع فيه ثم سجلت مذكراتها :

« اننى الآن فى الثلاثين من العمر ، العمر الذى بشر فيه المسيح » رسالته فلا أعمال صبيانية ولا اهتمام بالتوافه .. ولا حب ولا زواج بعد الآن . ثم انثنت وقد أصبحت على استعداد لترسم خطاها الى والديها تقول :

— « سوف اكون ممرضة » .

— قالا : هذا جنون .

— قد يكون ما تريان ؛ بيد انه ليس لدى ما اقول ، الا اننى احمد الله على هذا الجنون ..

وانطلقت فلورنس بعد هذا الى الميدان الذى اختارته تعمل للانسانية الجريحة ، تدرس وتزور المستشفيات ثم تقوم برحلة الى المانيا وتنتسب الى معهد الممرضات الذى انشاه هناك الهر « فليندر » ولقد خشى هذا ان ترزح الفتاة الارستقراطية تحت عبء العمل الشاق ، ولكنه حينما شاهد كيف ادت ذلك العمل بصبر ودراية ، علم انها خلقت لا للتمريض وتضميد الجراح فحسب ، بل لرسالة أعظم ، لاحياء الآمال فى نفوس المعذبين .

***

كان العمل الذى اضطلعت به فلورنس نايتنجيل — كأول امرأة — لادارة مستشفى ، شاقا متعدد المسئوليات ، كان عليها أن تشرف على

توجيه أولئك المرضات اللاتي كن مفتقرات الى التهذيب والتـــدريب والنظام كما كانت تساهم في شتى الأعمال المرهقة بالاضافة الى الدفاع عن نفسها ضد الغيرة المؤسفة التي لا تنقطع من زملائها الرؤساء .

كان عملا بطوليا حقا وتجربة كبرى ثبتت لها ببسالة وخرجت منها منتصرة ، وكانها كما قالت « مسز كاسكل » ـ الروائية ـ مسيرة من عند الله « كجان دارك » .

فلورنس نايتنجيل ، هذا الملاك الراحم الذى ارسلته السماء ، ليس هناك لتضميد الجراح ومسح الدموع ، وجلب السلام للمعذبين غيرها . ان الاسم الذى تردد على كل لسان وفى كل نفس ، والانباء تتوارد من ساحة القتال « فى القرم (١) » منبئة ان الجرحى هناك بحالة سيئة وفى اقصى درجات الخطورة . اذ ليس هناك من يعنى بهم ، بل يضمد بعضهم جراح بعض . ولا من ضمادات كافية لهم هناك ايضا او ممرضات . وكان امرا اهتز له الشعب البريطانى ونادى حكومته مجتمعا لوضع حد لتلك المأساة ، ويتبلور النداء أخيرا فى اسم واحد : « فلورنس نايتنجيل » .

***

وطرقت صرخات الشعب اسماع فلورنس ، وتجاوب النـــداء من ساحة المعركة ومن كل جرح هناك ، فى اعماقها ، فاذا هى تهب وتعد حملة صغيرة من الممرضات للذهاب الى « سكوترى » ولكنها تخشى أن تعدها الحكومة عبئا جديدا بالاضافة الى اعباء الحـــرب ، فتكتب الى السير سيدنى هوبرت سكرتير القيادة الحربية تقول :

« هى حملة صغيرة اعدت لسكوترى وكلفت ان اكون على راســها . اننا سوف نقوم بكل ما نحتاج اليه من طعام ومأوى ، ولن نحمل حكومتنا اى عبء » .

وسمح لها بالسفر بعد متاعب ، وفى جو عاصف اقلتــها باخرة من بريطانيا على رأس بعثة مؤلفة من ثمانى وثلاثين ممرضة « الى القرم » .

***

وتصل فلورنس الى « القرم » مريضة واهنة ولـــكنها ما تلبث ان تتغلب على ضعفها . ومن يستطع أن يبقى طريح الفراش هناك . والعديد

---

(١) هى الحرب التى دارت رحاها سنة ١٨٥٤ بين تركيا وحليفتيها بريطانيا وفرنســا ضد روسيا التى ارادت تقسيم أملاك الدولة العثمانية وخرق سيادتها .

من الجرحى فى انتظار العناية بهم ، الى اخطاء اخرى بحـــاجة الى الاصلاح وحالات عناد للتغلب عليها ؟!

واصر القائمون على شئون المستشفى العسكرى هناك ، على ان كل شيء يجب أن يبقى على حاله ، وانهم لا يريدون التدخل من أية امرأة فى ما يتعلق بدائرة نفوذهم وتنظيمهم .

ولمست فلورنس هذه الحال السيئة فقالت بأسف :

« انها ليست غلطة احد ، بل هو خطأ نظام حكومى فاســـد ، ذلك الذى يحاول أن يتقدم للمستقبل بأعين متلفتة الى الماضى » ...

وما كان الذى يدور فى مستشفى « سكوترى » بالشيء الذى يطاق، وقد قيل فيه : « ان كل امل يتخلى عنك ايها الداخل اليه » .. ولـكن كانت هناك واحدة ، استطاعت الدخول اليه ، ولم يتخل عنها الأمل ،انها « فلورنس نايتنجيل » .

وخلقت فلورنس هناك التعقل من الفوضى بأسلوب بسيط هو بتـر بعض الاجراءات الرسمية العقيمة .

وتلقى المستشفى اثر وصولها شحنات كبيرة من الألبسة للجرحى . وظلت هذه الالبسة فى المستودعات والجرحى يرتجفون من العرى والبرد طيلة أسابيع الى أن تقدمت فلورنس وممرضاتها ــ بعد أن أرسلت الصرخة تلو الصرخة ــ لاعدادها وتوزيعها ، والمسئول يبدى تذمره ويقول :

« ان العالم سوف يئول الى النساء .. والكلاب » .

ولكن النساء تحت قيادة فلورنس نايتنجيل كانت لهن طريقتهن فى دقة العمل والانجاز والتنظيم ، فما عاد أحد هناك يشكو الجوع أو البرد او التعب او الأهمال .

وتقدم الكثيرون ممن عرفوا قيمة هذا الجهد الانسانى الجبار بالعون المادى للحملة فكفلت به « فلورنس » كل ماتتطلبه بيد انها لم تنج من النقد ، وعد البعض هذا العمل تبذيرا لمال الدولة فكتب سفير بريطانيا فى تركيا يقول :

« انه يود لو صرفت هذه الأموال فى عرض نافع كبناء كنيسة مثلا فى القسطنطينية وسمع احد الجنود الجرحى هذا فقال : «هذا المستشفى هو معبدنا ، وفلورنس فيه ملاكنا الراحم » .

ونظر اليها اولئك الجنود نظرة اجلال وعرفان بالجميـــل ولقبوها بالسيدة : « حاملة المشعل » اذ كانت تنتقـــل بمشعلها بينهم فى الليـــل

لتضمد جراحهم فى ساحة المعركة . ولقد كان وجودها فقط يعيد الرجاء بشفاء جرحى عديدين كان قد قطع كل امل فى شفائهم . ولكم كان الجرحى الجنود ، يقبلون طيفها حينما كانت تمر عبر اقسام المستشفى . لقد كانوا يعبدون ذلك الملاك المقدس .

كان هؤلاء الرجال الذين خاضوا المعارك وعرفوا معنى التعب الحقيقى، يعجبون من طاقة الرحمة لهذا الملاك الذى لايكل ولايتعب . ولقد كانت تمر بها أيام تظل فيها جاثية على ركبتيها طيلة ثمانى ساعات تضمد الجراح جنبا الى جنب . ولم تخفها العدوى ، بل كانت تبذل من العون لمرضى الكوليرا ، والتيفويد ما كانت تبذل للآخرين . ولقد بدت ظاهرة ذلك النضال الانسانى جلية حين انخفض مستوى الوفيات بينهم بعد وصولهم بشهور من أربعين الى أقل من ثلاثة فى المائة .

ولكن هل كان من الغريب حقا ان يحقق وجودها هذه المعجزة ، وقد كانت تقف مع الجراحين للمساعدة ، عشرين ساعة دون انقطاع ، كما كانت تدير المستشفى ادارة حكيمة بقلبها وعقلها ويديها ؟؟

كانت اقامتها فى « سكوترى » كفاحا موصولا بين ارادة حديدية وجدار صلب من المقاومة . ولكن هذا الجدار تفتت على صخرة تلك الارادة . ولقد عجب احد القواد من معاملتها للجنود برفق وخشى ان تقضى معاملة الرفق هذه على روح الجندية الصارمة فيهم فأجابت:«هذا ما ارمى اليه ، ان اقضى على هذه القسوة . ليتحولوا الى رجال لهم صفة الانسانية » .

***

وانتهت الحرب . وعادت فلورنس الى وطنها ولكن جهادها الانسانى لم ينته ، بل لعله ابتدأ فان مستشفى « سكوترى » لم يكن المستشفى الوحيد بل العالم كله ، كان غرفة مرض ، وجراح تبغى الضماد .

واحاطها الشعب اثر عودتها بهالة من التقدير ، ولكنه لم يفعل شيئا لمساعدتها فى تأدية رسالتها ، ولقد حاولت حكومة بلادها الاحتفاء بها فرفضت قائلة :

« انى لا اريد التملق ، بل اريد ادراكا وفهما لرسالتى ، ولكن هذا الادراك كان آخر ما باستطاعتها ان تناله . فلقد جربت ان تنشىء مدرسة للممرضات يتدربن فيها ، وان تجد المرأة فيها معهدا تصبح فيه انسانا كما كانت تتوق لعمل اصلاحات واسعة فعالة فى المستشفيات والثكنات الحربية فى بريطانيا ، وتحدثت فى هذا الأمر الى الشعب البريطانى كما

نالت تأييد الملكة « فيكتوريا » غير انها عورضت من قبل بعض الساسة .. ولم هذه الضجة تثيرها فلورنس نايتنجيل حول انشاء مدرسة للممرضات واصلاح المستشفيات والثكنات ومنشآت الصحة العامة ؟.

وطال بينهما وبين أولئك الجدل · ولكنها حين أخفقت فى اقناع أولئك الرؤساء ، الفت كتابا مثيرا بعنوان « ملاحظات على التمريض » ترجم الى عدة لغات وانتشر فى انحاء العالم .

***

واصغى اليها الشعب اخيرا ، وتقدم يطلب باصرار تنفيذ مشاريعها ، وبالتالى تأمين حقوقه الاجتماعية . فكان أن أنشأت مدرسة للممرضات، وأسست المستشفيات التى طالبت بها على النحو الذى تريده .

واستمرت « فلورنس » تتابع جهودها العظيمة حتى أقعدها الجهد والمرض ، ولكنها لم تركن الى الراحة بل استلمت بيديها الواهنتين زمام الكفاح الاجتماعى من بيتها : فأسدت لوطنها خدمات لاتنسى . ولقد تجلى وفاء الشعب والحكومات لها بعد ذلك فى صور متعددة فحيثما كانت تمر عربتها فى الطرقات للتنزه ، كانت الجماهير تحتشد حولها هاتفة :

« مس نايتنجيل » دعينا نمس يديك المحسنتين ، دعينا نقتبس من نور عينيك الطاهرتين » ..

***

بلغت « فلورنس » الثمانين من عمرها ولكنها لم تكن على استعداد للتخلى عن تلك الرسالة بل لقد كانت تقضى تلك الأيام فى التفكير ووضع الخطط ومطالبة المسئولين ببناء مستشفيات ومعابد بل وعالم افضل .

وكانت تجد فى كل ما تراه من هول فى سبيل المعذبين خيرا . ولقد ظلت مرة مع ممرضاتها طيلة عشرة أيام دون ان يكون لديهن من الغذاء الا النذر اليسير وفى فيض من الدماء ولكنها قالت مع هذا :

« فى وسط هذا الهول المرعب الذى كنا نغرق فى الدم فيه حتى الرقاب ، أجد فى ذلك خيرا ، ولن أستطيع أن أقول الا ما قال القديس بطرس : « ان من الخير أن تكون هنا ، ولو اننى اشك ان هذا القديس سيقول هذا فيما لو كان هنا » وأحيطت فلورنس بعد هذا بكل مظاهر الحب والشرف . وكان أعظم ما نالته من تكريم ان ظل العمل الذى قام عليه مجدها مستمرا ، لذلك المجد الذى ما برحت تبدو آياته فى تقدم

فن التمريض الحديث ، وتأسيس واصلاح المستشفيات العسكرية والمدنية والمؤسسات الصحية ، كأثر من كفاحها الخالد .

***

وأنعمت عليها مدينة لندن بوسامى «الاستحقاق» والحرية واحتفل العالم فى عيدها الثمانين ملوكا وممرضات ، وكل أولئك الذين عملت لخيرهم .

***

وحملت فلورنس نايتنجيل حين فاضت روحها الى مقرها الاخيرعلى أكتاف ستة من الجنود أولئك الذين ضمدت يدها المحسنة منهم الجراح فى « القرم » والذين ما برحت تخفق جوانحها بحبهم حتى اللحظة الأخيرة وقد سألتها صديقة لها اين انت الآن ؛ لتقول :

« فى ساحة المعركة اسعف الجرحى واخفف من عذابهم ، نعم ، وسأبقى لهم الى الأبد » ...



علم فى الحرب ... والسلم

كلارا .. بارتون ..

١٨٢١ - ١٩١٢

الى الأمام   الى الأمام   ايتها الكتائب

فى أودية الموت تسيرين ، تحملين السلاح ؟

ايتها الكتائب التى تجرى دماؤك على الأرض سفحا أهى الا رمز فداء ووثيقة تاريخ ؟؟

***

لم تكن حياة كلارا الا وثيقة شرف وتاريخ وخلاص للانســـانية فى جراحاتهـــا وشدائدها ، والا صلاة سلام تتعـــالى من سماء المعارك ٠ والصليب الأحمر الأمريكى الدولى - مدار كفاح كلارا وفخارها - يصبح اليوم شطرا من حياة الأمة الأمريكية ، كالمدارس الوطنية والألعاب القومية، وعلمه بحق يتألق فى الحقل الانسانى ، كالنجم الهادى ، ومؤســـســـة الصليب الأحمر ، تلك التى خدمت وطنها فى حربين ، ونمت فى سنى السلام كسنى الحرب ، تتسامى بجهود امراة واحدة هى كلارا بارتون.

***

ولدت كلارا بارتون - مؤسسة الصليب الأحمر الدولى الأمريكى - فى مزرعة والدها فى الخامس والعشرين من كانون الأول عام ١٨٢١فى مدينة أكسفورد التابعة لولاية ماساشوستس وكانت وهى أصغر ابناء أسرة مؤلفة من خمسة اطفال ، الاثيرة المفضلة لدى ابيها الكابتن ستيفان بارتون قبل أن يستقر فى مزرعته الهادئة والذى شاقتها احاديثـه عن

مغامراته وتجاربه ، تلك الأحاديث التى كانت تؤثر سماعها وهى تقفز لتجلس فى حضنه طالبة بالحاح تفاصيل مواقفها البطولية التى سحرتها حتى حفظتها عن ظهر قلب ...

وكان لكلارا صديق أثير آخر فى الأسرة هو شقيقها داورد — البالغ الثلاثة عشرة من العمر والذى دربها على ركوب الخيل ، فى وقت لم تكن تملك ماتملكه ترائبها من اللعب التى كانت تعدها أمها ضربا من التوافه الأمر الذى دفعها للاستعاضة عن هذه الوسائل للتسلية وتشغيل طاقات الطفولة ، بالحيوانات الأليفة والعمل فى الحديقة . بيد أن هوايتها المفضلة كانت ركوب الخيل .

وفى البيت أخذت كلارا تتلقى عن أخوتها دروسا فى القراءة والكتابة ، وتجلى تفوقها فى دروس الاملاء والحساب والجغرافيا قبل ان توفى عامها السابع ، وقبل ان يحملها شقيقها ستيفان على اكتافه الى مدرسة المقاطعة ....

وكانت السنة الأولى فى المدرسة تجربة عسيرة لفتاة حيية هادئة ، لم تتعود الجلوس الى جانب الغرباء !

وحلت الحادثة الأولى التى رسمت خطة السير للرسالة التى انتدب القدر كلارا لها ، وهى فى الحادية عشرة من عمرها الا وهى رسالة التمريض ، وذلك حين أصيب شقيق كلارا داورد بسقوطه من سطح عنبر مخزن ، وظل عامين دون حراك لزمت الصغيرة فراشه ناسية مع آلامه وواجبها نحوه كل هوايتها المفضلة لركوب الخيل — اذ قلما كانت تتركه وحيدا . بيد أنه حينما شفى بفضل عنايتها وحدبها عليه ، تحققت الأسرة ، انه أصبح لديها مريض آخر ، هو كلارا . بعد أن أتلفت أعصابها تلك الفترات الطويلة الحزينة الصامتة التى قضتها ساهرة على أخيها فصلتها عن الناس وجعلتها كتلة أعصاب مرهقة ..

وترى شقيقتها الكبرى سالى ، ان الشعر هو الذى يستطيع تخفيف متاعبها وتجديد قوى الروح فيها أو تهدئة أعصابها . وتنجح التجربة ، وتتجاوب روحها الرقيقة الملهمة مع الشعر الاسكتلندى والانجليزى بحماسة بالغة ، كما يتجاوب معها متأثرا بهذا الروح الجميل الحى ، داورد شقيقها . ويحقق الشعر الشفاء الروحى والبهجة للأخوين فيعودان معا الى سابق رياضتهما المحببة فى الركوب والنزهة فى الضواحى ..

وتتحسن صحة كلارا حقا ، بيد أن نموها الجسمانى يضعف ، لمكوثها الطويل طيلة عامين فى البيت دون نشاط . هنالك ، ترى الأسرة ، انه أسهل عليها اعادة الصحة للفتاة ، من نزع شعور الخجل والانزواء فيها

عن الناس • ويقر الرأى فيما بينها على الحاقها بمدرسة داخلية • فمعاشرة الآخرين تعمل دائما على انماء الشخصية دون ريب .. ولـكن التجربة تفشل ، كلارا تبدو ــ بين مائة وخمسين فتاة ــ كأنها غريبة عنهن .. وتعاد كلارا الى البيت لتستأنف فيه دراسة خاصة . وبافتتاح مدرسة عالية جديدة فى الولاية تنتسب اليها كلارا كتلميذة نظامية .

وشغلت كلارا عن خجلها بدروس الفلسفة والكيميـاء واللاتينية . وصرفها ذلك النشاط الفكرى العملى عن القلق . وبرهن الدرس والعمل على انهما الدواء المقوى الوحيد لأعصابها وخجلها . واحست هى بهذا الانقلاب ، فقررت العمل بعد التخرج من المدرسة فى مصنع للنسيج كان يملكه شقيقها ستيفان . وتحول أمها بينها وبين العمـل خشية ارهاق ابنتها الضعيفة . على حين يرى شقيقها أن العمل وحده هو الذى سيكون منفذا لطاقاتها وسبيلا لشفائها ــ ونجح فى اقناع الأسرة بالسماح لها بتلك التجربة . ولفرحة كلارا ، استقامت لها تلك الأمور ، واصبحت يدا عاملة ــ ولكن هذا العمل لم يدم طويلا ، اذ احترق المعمل . غير أن كلارا كانت قد تمسكت بقرارها فى ان يظل لها مكانها فى العالم المجد العامل .

وكانت مشكلة لم تجد لها حلا ــ والوظائف التى أعطيت للنسـاء محددة . وأخيرا اتجهت لمهنة التدريس وتجلت كفايتها فى هذا الميدان كفتاة نشأت فى بيئة علم وفضل وثقافة . ومن ثم نراها تؤسس فيما بعد مدرسة خاصة فى المدينة الصناعية من اكسفورد الشمالية تديرها خلال النهار وتساعد شقيقها فى شئون المصنع بالعمل والكتابة فى الليل كما تعكف على تثقيف نفسها وتوسيع معلوماتها بالقراءة والدرس ــ وباتساع افقها الفكرى اتضح لديها أنه لابد لها من دراسة عالية شاملة . وتدخل كلارا معهد هاميلتون العالى للبنات ، وما تكاد تنتهى دراستها فيه حتى تبدأ بالتفكير فى عمل جديد ، مقررة مغادرة ماساشوستس الى نيوجرسى وفى نيوجرسى ، لم تجد هناك مجالا لتأسيس المدارس الأهليـة اذ كان التعصب ــ ضد هذه المشاريع شديدا .

ولكنها سرعان ماوجدت نفسهـا تنغمر فى المعركة بكل مالديها من طاقة وطموح فهناك مثلا فى المدينة الرئيسية المجاورة ستمائة طالب فى سن التعليم يذهب منهم مائتان الى المـدارس فقط بينما يظل الباقون مشردين فى الأسواق ، فصممت على الذهاب توا الى تلك المدينة ، لافتتاح مدرسة أهلية فيها • وقدمت نفسها الى حاكم المدينـة وبسطت أمامه مشروعاتها قائلة :

اعطنى بناية وسأعلم فيها ثلاثة شهور اذا لم تحقق خلالها المدرسـة نجاحا فانك فى غير حاجة لدفع أى فلس الى .

وقبل المسئولون العرض بتردد . واعطوها بناية قديمة . وبدأت المدرسة بستة طلاب اشقياء . ولكن خلال خمسة اسابيع باتت البناية اضيق من ان تتسع للسيل المتدفق وفى النهاية بنت المدينة مدرسة جديدة لمعلمتها بلغت نفقات بنائها اربعة آلاف دولار .

وارتفع عدد الطلاب من ستة الى ستمائة . وكان هذا النجاح نصرا للمدينة كما لكلارا التى تطلعت من وراء هذه الشهرة الى تأسيس مدارس اخرى جديدة للمدن التى هى بحاجة اليها . ولكننا نراها وهى تندفع بكل طاقتها الروحية والجسدية لهذا الكفاح تتعرض فى نهاية العام للمرض وتصاب ببحة فى صوتها . وكانت صدمة اليمة للمعلمة الطموح ان تتراجع بعد ثمانية عشر عاما من الجهد عن رسالة اصبحت تعنى الكثير بالنسبة لها . ولكنها كذلك لن تستطيع عمل أى شىء بدون صوتها تلك الأداة الأمينة الصادقة فقررت الذهاب الى وشنطن للبحث عن عمل كتابى . واستقالت ولكن ، لتعود الى بيتها وهى فى حالة انهيار عصبى وضعف شديد .

ولم تثنها الحقيقة ، بأنها لم تشغل أى مركز رسمى للعمل لدى الدولة من قبل ولكنها تلقت عرضا منها ــ بواسطة بعض نواب ماساشوسيتس ــ للعمل فى وزارة الداخلية وأدت المرأة الأولى التى انتدبت لذلك العمل فى سلك حكومة الولايات المتحدة واجباتها هذه فى دائرتها بكفاية وتمييز ، اهلتها فى وقت قصير لشغل امانة المكتب براتب قدره الف واربعمائة دولار . وثابرت على العمل هناك حتى بعد انتخاب الرئيس سنة ١٨٥٦ ــ وحينما نسقت الدائرة موظفيها الذين عطفوا على حركة تحرير العبيد ، لم تستطع التخلى عن كلارا كغيرها من حملة ذلك المبدأ ولكنها ــ مع هذا ــ تنسحب طوعا حينما ادركت ان التعاون معهم أصبح شاقا عسيرا ...

فى ذلك الوقت اصبحت قضية الرق قضية محلية اختلفت فيها الآراء .. غير أن كلارا كانت ترى ان السبيل القويم الذى يجب ان تتبعه الدولة ، هو الاتحاد بأى ثمن . وبعد اعلان الحرب على التحالف ، اخذ الشمال يعبىء قواه بجهود عظيمة لايقاف الجيوش المتمردة .

وفى الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٨٦١ استجابت ولاية ماساشوسيتس لنداء الرئيس لنكولن وقدمت اربع فرق عسكرية مؤلفة من خمسة وسبعين ألف جندى اتجهت واحدة منها على الفور الى واشنطن لاخماد الثورة والدفاع عن العاصمة الواقعة فى الخطر .

وتندفع كلارا تضمد الجراح مع فريق من صديقاتها متجاوبة بحرارة مع شباب الفرقة الذين كانوا من اصدقائها وزملائها فى الدراسة

وحينما لا تجد بين يديها الضمادات الكافية فى المعسكر تتحـــول الى بيتها لجلب كل ما فيه من الأقمشة وملاءات الفرش والأسرة .

وفى اليوم التالى دهش الذاهبون للصلاة فى الكنيســة وهم يرون كلارا تقود خمسة من العبيد حاملين الطعام ومعـــــدات الراحة الى جنودها الجرحى .

وناشدت كلارا مجلس الشيوخ كما اذاعت للشعب نداء فى الصحف للتبرع للفيلق السادس الباسل من ماساشوسيتس وما أن تعالى النداء حتى انهمرت المساعدات المختلفة عليها من كل جانب وضاق بها المنزل ، فاستأجرت آخر .. واتسع نطاق جهادها وكان لابد لها ان تضـــحى بوظيفتها ، فتخلت عنها للعناية بالجنود الجرحى وهم فى طريقهـم الى المستشفيات .

ولم تتباطأ الأيام بأحداثها عن المرأة التى اخذت اهبتها للـــكفاح الانسانى ومساعديها اذ هاهى الأنباء تفد منبئة عن موقعة بنيسولر وعودة الجرحى منها ليجدوها فى انتظارهم والى ان تصل سيارات الاســعاف بالجنود لنقلهم ، كانت كلارا تعنى بهم مضمدة جراحهم ــ برعاية وعناية فائقتين .

ولكنها مع هذا وجدت ان هذه الخدمات ــ مع ما تحمل من اهميــة لحياة الجنود ــ فقد كان هناك الكثيرون ممن يموتون فى الميـــدان ، لافتقارهم الى الاسعاف العاجل ، وتصبح جراح الكثيرين منهم مميتــة لافتقارهم الى العناية . فلقد كان ميدان المعركة بامس الحـــاجة الى ممرضات . فقر قرارها على ان تكون المتطوعة الأولى فى هذا العمـــل العظيم .

وتقدمت كلارا . ولم تكن الظروف الشخصية او العقبات فى انظمة الجيش القاسية بقادرة على الوقوف دونها والهدف النبيل الذى اتجهت اليه . وتشتغل كلارا لعدة شهور فى تلك الأوقات العصيبة منتظرة فى ذات الوقت فرصة سانحة لبسط القضية الحيـــوية أمام قواد الجيش ويصبح هدفها الانسانى العظيم اعظم رسوخا فى نفســـها مع آلام كل جريح قادم .

ويحل الوقت المناسب وثمانية آلاف جريح تتدفق من الجبهة ابان هذه الهدنة فى الأيام السبعة فى مالكين . هنالك لم تستطع كلارا صبرا وقصص العذاب التى كان يقصها الجرحى الآتون من ميدان القتـــال ، تملأ مسامعها رعبا . فتستأنف مساعيها بايمان عميق ... ولم تقابل هذه المساعى بالرفض هذه المرة ، بل تكسب معها مناصرين .. لتـــالبف جهاز طبى جديد تجربه مع مساعديها فى ميدان المعركة .

وتصل كلارا فى اليوم التالى لمعركة سيدر ماونتن ، وتواصل عملها فى تضميد الجراح لخمسة ايام لم تتوقف خلالها الا ثلاث ساعات للراحة ، ما تكاد تنتهى الا وتصلها انباء خطيرة اخرى من الجبهة فى معركة بل رن لتتجه اليها متناسية تعبها المرهق والمشهد الدامى للمئات من الجرحى الراقدين على أسرة من قش ، يهزها حتى الأعماق . ولم يمض على وصولها خمسة عشر دقيقة حتى كانت مع مساعديها تقدم لهم الحساء الساخن وتعنى بجراحهم بأقصى مظاهر الرأفة والحنان .

وأخذت الفرقة الطبية الصغيرة فى العناية بالجنود وتغذيتهم ولفهم بالأغطية طوال النهار حتى اذا اشرق الفجر وشرعت القطارات فى نقلهم ، احست كلارا بطمأنينة غامرة وقد استطاعت العناية بكل جندى جريح . استطاعت تنظيم العناية بهم رغم قلة خبرتها ، ولكن عن طريق الآلام والعذاب والدموع كما تقول .

وتقف كلارا فى نهاية اليوم مع البرق والبرد والعواصف تتبلغ قليلا مما يسد الرمق ، مستأنفة كفاحها المجيد بين الجرحى خلال الليل ، مستمرة فى الاشراف على نقلهم .. وتعود الى الخيمة لتأخذ قسطا من الراحة فما تستطيع وقد بلل المطر الفرش والأغطية فما تلبث أن تعود الى تأدية واجبها الانسانى . وحين يسألها الجنود هل أستطيع السفر ؟ فانها على مابها من ارهاق تجيب بتصميم وكأن خيالها قد عاد بها الى لحظات ركوب الجياد السعيدة ــ نعم ــ .

وتستطيع كلارا مغادرة المعسكر عائدة فى القطار مع الجرحى قبل استيلاء العدو على الجسر . وفى عودتها الى واشنطن تجد انها أصبحت « بطلة قومية » ولكن واشنطون لن تستطيع التمسك بها حينما يكون هناك عمل فى الميدان ، فعادت اليه . وفى مايو سنة ١٨٦٤ كرمتها الدولة بانشاء قسم خاص للممرضات فى مدينة فرجينيا ، أتاحت لها فيها السلطة الكافية لتنفيذ مشروعاتها وآرائها .

ولكن المرأة التى شهدت المعارك كالكثيرين من الجنود ، لم ترض بالاقامة بمكتب فى دائرة ومازالت بلادها بحاجة ماسة لخدماتها فعادت كلارا الى الجبهة مع مساعديها جميعا خلال سنى الحرب الطويلة .

وهنا ترى كلارا أن واجبها كممرضة لم ينته ، وان انتهت الحرب فتقضى اربع سنوات اخرى فى البحث عن المفقودين من الجنود باذلة اقصى الجهود وكل مالديها من مال فى هذا السبيل . واخيرا تتنبه الحكومة الى هذا الجهد النبيل الذى تبذله فتمدها بخمسة عشر الف جنيه لتتمكن من الاستمرار فى البحث .

وقبل ان يكون لدى كلارا الوقت الكافى لتفكر ماذا سيكون عملها التالى ، اذا بالظروف ترسم لها جهادا وطنيا آخر . وذلك حين تتقاطر

عليها الرسائل من مواطنيها الذين يهمهم معرفة الحقائق عن الحرب .. فلبت النداء وأخذت تلقى المحاضرات فى الأندية التى كانت تغص بالمستمعين لمغامرات تلك المرأة المكافحة الفذة . ولكنها ما تلبث ان تصاب بمرضها القديم ـ بحة الصوت ـ ويوصيها أطباؤها بالسفر الى أوربا للمعالجة والاستشفاء فتسافر لتبقى هناك ثلاث سنوات .

ولكن ، هل تكون هناك راحة لانسان ذى شهرة مثل كلارا ؟ لا . فها هى ذى تبدى اهتمامها بأعمال جمعية الصليب الأحمر الدولى لاسعاف جرحى الحرب اثر زيارتها للجمعية فى جنيف وفى الاطلاع على معاهدة الصليب الأحمر فى جنيف ، رأت انه سيكون من الفخر لأمريكا الاعتراف بها .. وأن ترددها فى الاعتراف بها ، والتوقيع على بنودها لم يكن الا جهلا بأهميتها الانسانية . وتعد كلارا الجمعية بالقيام بحملة لها فى امريكا بعد عودتها اليها . ولكنها تنجذب الى صفوفها قبل أن تعود الى وطنها ابان انفجار الحرب البروسية الفرنسية الألمانية .. آخذة مكانها بين الجرحى والمحتضرين من الجنود مخالفة بهذا أوامر أطبائها قبل أن تعود الى وطنها ، ولكنها فى هذه المرة تعنى بجراح الأوربيين لا الامريكيين .. وبفضل ارادتها التى لا تقهر استطاعت أن تجد القوة للاستمرار فى رسالتها .. ولم تتخل عن جنودها الا حينما مرضت مرضا خطيرا بعد ان تعرضت عيناها لدخان المدافع وحرارتها اللاهبة خلال حربين . ولقد تبع هذا انهيار جسدى أجبرت خلاله على الهدوء التام معصوبة العينين فى غرفة مظلمة ولشهور طويلة ، وتعود كلارا بعد هذا وقد استعادت طاقتها الى الولايات المتحدة فى اكتوبر سنة ١٨٧٣ مصممة على بدء حملتها من أجل الصليب الأحمر . ولكن شقيقها سالى يموت ، فتصبح حالتها الصحية معالكفاح والحزن مدعاة للقلق واليأس . ولعشر سنوات تجبر على الاقامة فى مصحة دانزفيل فى نيويورك . ولكنها لم تكن سنوات دون كفاح ، فهى وان لم تستطع اجبار قواها الجسدية على العمل فقد كان لها عقلها الذكى النشيط . فلقد بدأت فى كتابة المقالات والرسائل لالهاب الحماس فى الشعب الامريكى لنصرة حملة الصليب الأحمر .

ومع انتخاب الرئيس جارفيلد عاد لها الأمل اذ وقفت فى الحرب الأهلية جنبا الى جنب مع المجندين فى ميدان المعارك . ولقد كانت تعلم ان الجندى سيكون أعظم فهما وتدعيما لرسالتها ، وكان تقديرها صحيحا اذ كان يتتبع مقالاتها عن الفكرة باهتمام كما رحب بزيارتها للبيت الأبيض .

فى تلك الزيارة ، بحث الرئيس مع سكرتيره خطة كلارا ـ فكرة

قيام جمعية صليب امريكى بدقة ـ كما تقرر عرض الاقتراح على الوزراء واذ حظى بالتأييد من اعضائه بحماسة وضع له وليام لورنس ـ حارس الخزينة ـ القانون الأساسى لتقـــديمه ـ فى ذات الوقت ، ترى كلارا تتابع كفاحها الأدبى للرد على معارضى فكرة اقامة صليب أحمر امريكى بحجة ان أمريكا لا تنوى الاشتراك بأية حرب مقبلة ـ بأن البــلاد على افتراض كهذا ، فهى ليست بمنجاة من النكبات القومية كالفيضانات والحرائق والأوبئة ، فالصليب الأحمر فى مثل هذه النوازل الطارئة ، سيكون ذا نفع عظيم للبلاد .

ولــكن الرئيس جارفيلد يغتال قبيل تنفيذه لدستور الصليب الأحمر الأمريكى ، وتخشى كلارا معارضة الرئيس الجديد « آرثر » له ، ولــكن هذا ينفذ وعد سلفه السابق ولتحمل سجلات الصليب الأحمر الدولى بفضل مثابرة كلارا ـ موافقة الولايات المتحدة على الميثاق ، وليقــابل العالم الحدث العظيم الذى أعلنه الكونجرس بالتقدير ـ وبايقاد المشاعل ابتهاجا فى شوارع سويسرا وفرنسا والمــانيا واسبانيا .

وبرهن الصليب الأحمر الأمريكى على انه عظيم الفعل والأثر للولايات الأمريكية وعلى راسه قائدة ذات حيوية والهام ككلارا ، وان كانت فى الواحدة والستين من عمرها حينما بدات نشاطها فيه كرئيسة للمؤسسة الانسانية الــكبيرة ـ وحين ظلت مثابرة على حمل لواء الــكفاح فيه لمدة خمسة وعشرين ســــنة تقود فرقتها خــــلالها عبر الفيضانات والنار والعواصف والمجاعات والأوبئة الســــاحقة وفى الحرب الاسبانيـــة الامريكية .

ولم يكن هناك اى رجل ـ مهما كان عظيما ـ بقادر على ان يوازى عظمة هذه المراة البارزة بعملها العظيم ، أو يفيهــا حقها من الاجلال ، وصليبها الأحمر يمتد بالرحمة والحنان والانقاذ الى كل قلب معــــذب ووسط كل كارثة مدلهمـــــة . ولقد كرمهــــا الملوك والأباطرة والأمراء والسياسيون حقا ، غير أن الجندى العادى الذى أحبهــا أعمق الحب واقدسه ، كان حبه أعمق وأكرم من حب هؤلاء جميعا .

وحينما اعلن نبأ موت كلارا فى ١٢ ابريل سنة ١٩١٩ التقت جميع صحف العالم فى الثناء على عملها وتضحيتها واتكار ذاتها فى تضميد جراح الانسانية فى شدائدها الــكبار ، وخدمة وطنها فى الأحــداث الجسام .

لقد كانت حياة كلارا بارتون حياة مجيدة حافلة ، ولــكن ســتظل امجد اعمالها واعظمها خلودا لليوم وغدا ، هو تأسيس الصليب الأحمر الأمريكى .

هاريت بيتشر ستو ..

وتحرير العبيد

١٨١١ – ١٨٩٦

فى خشوع عميق ، وقف المحرر الأعظم ابراهام لنكولن ذات يوم من سنة ١٨٦٢ ، ليحيى المرأة التى قدر لها أن تهز بقصتها الخالدة « كوخ العم توم » ضمير العالم وتجند الراى العام الامريكى ، ضد ذلك الظلم الساحق النازل بالزنوج ، وأن تكون الموحية الدافعة لحرب تحرير العبيد الأهلية التى انتصرت فيها الولايات الشمالية فى أمريكا على الجنوبية ، قائلا :

« حسنا مسز ستو ، اننى لسعيد بأن ارحب بك ، بوصفك مؤلفة تلك القصة التى أحدثت تلك الحرب العظيمة » .

فمن هى هاريت بيتشر ، تلك التى استطاعت أن ترسم بقلمها ادق صورة للعذاب البشرى فى قصة مثيرة تتحسس فى كل سطر من سطورها معانى انسانية ، تضرب فى أعماق الانسان لتثيره ضدالاضطهاد البشرى والاسترقاق ؟

وأى معان بالغة فى الشجو هى ، وليزا الأم الزنجية تقول لزوجها العبد الرقيق وهو يبثها قلقة ومخاوفه بعد أن استمع لمحاورة خفيفة كانت تدور بين سيدهما وبين أحد تجار الرقيق لبيع طفلهما الوحيد :

« ولكن يحسن بك أن تعتصم بالايمان ياجورج لقد قالت سيدتى : ان علينا حين نغرق فى بحر من الظلم ، أن نؤمن بأن الله يبذل غاية جهده لرعايتنا ..؟ »

ولدت هاريت بيتشر ستو فى يوليو من سنة ١٨١١ فى مدينة نيوانجلند

فى ليتشـــفلد وكانت الصـــغرى من أطفال ســـبعة ، لأب مبشر ، لم يكن راتبه القليل بكاف ليؤمن للأسرة الكفاف من العيش ، مما حـدا بأمها « روكسانا » الى افتتاح مدرسة أهلية ـ وكانت ذات ثقافة وعلم ـ لتعليم العلوم واللغات والفنون النسوية ، بالاضافة الى رسالتها الأولى كربة بيت وأم مثالية .

فى هذه البيئة الواعية المغامرة ، نشــأت هارييت ، وأحست منذ طفولتها بروح الحرية تسرى فى أعصابها ودمها ، وهى تتجول بين الحقول والغابات . ومن تلك الطبيعة الرائعة المتجددة ابدا ، ومن ارضها المتجهمة بالســحب ، تثقفت ـ كما تقول ـ ونما تفكيرها وفهمها للحياة بطبيعتها وتجهمها وتقلباتها .

وتقص هارييت من حوادث طفولتها ، مايدل على انها كانت كثــيرا ماتثير العديد من المشاكل والمتاعب لأمها ، ولقد اغرت ذات مرة شــقيقا لها على اقتسام أكل بصيلات الزنبق ، وبهذا حرمت الأسرة من صيف حافل بالزهر والشذى العميق .

ولكن هذه الطفولة سرعان ماتراها تتعرض لضربة القدر ، ويدالموت تغتال الأم المثالية المضحية ، ولـما تتم هارييت الخامس من العمر بعد ، وليبدو فى موتها ، كأن الأسرة كلها قد ضاعت . وأصبحت دون قائد . ولم يكن الصغار هم الذين حرموا هذا النبع الفياض من الايثار والحنان فحسب بل كان السيد بيتشر ، ذلك الزوج الذى لم يستطع أى عزاء التخفيف من ألم فجيعته ووحدته فيكتب الى صديق له يقول :

« هناك شعور بالفجيعة والخسارة مامن ســـبيل الى تخفيفهما ؛ ووحدة لاينفذ الى ظلماتها مؤنس واننى حتى بين مرح الأطفال وعطف الأصدقاء أجدنى وحيدا . بيد اننى لااتضجر بل ان شعورا يوميا عميقا يغمر كيانى ، بأنه كم يجب أن أكون لله شاكرا » .

« ولقد كان العام كله ـ بعد موتها ـ عام فراغ روحى عظيم ، كأن لم يكن هناك محركات كافية فى العالم لتحركنى . ولقد تعودت أن أصلى لله بحرارة أما ان يأخذنى اليه ، أو يعيد الى ذلك الشــعور باللذة فى الأشياء ، وفى البواعث التى كانت تحركنى فيما مضى » .

***

وذهبت هارييت اثر وفاة أمهــا ـ لتعيش مدة مع جدتهــا ومن ثم لتعود الى لتشفيلد .. بعد زواج ابيها للمرة الثانية .

ولقد حاولت الزوج الجديدة للسيد بيتشر ان تكون اما ثانية للصغار ونجحت بأن تكون محبوبة لديهم مكرمة . غير أن هاربيت لم تحس نحوها بذلك الانعطاف الخاص .

في سن السابعة برهنت هاربيت على انها تملك ذاكرة ومواهب ساطعة ، اذ اصبحت تحفظ اجزاء من التوراة وعددا كبيرا من الاناشيد الدينية ، كما كانت مولعة بقراءة وتحصيل المعرفة الى حد بعيد فقد كانت مكتبة والدها مقصدها للبحث عن هذا الغذاء الفكري وكان البحث عن هذا الغذاء واكتشافه يشبه لديها اكتشاف جزيرة في المحيط .

***

حينما بلغت هاربيت الثانية عشرة من عمرها التحقت بمدرسة السيد « جون دريس » وكان مربيا ذا شهرة ومكانة وفضل فتبدت براعتها وذكاؤها في التعبير والدقة في الانشاء . وفي يوم الاحتفال بانتهاء العام الدراسي كانت الفائزة الأولى . ولم يكن فوزها هذا عامل فرح واعجاب لأبيها وللمدرسة فحسب ، بل كان مستهل حياة جديدة تطلعت هاربيت لبنائها بعزيمة وروح لا يقهر .

وتنسج الأقدار خيوطها لدفعها الى تلك الحياة ، وخطيب شقيقتها « كاترين » يغـرق في حادثة مركب ، فتفتح تلك الشقيقة مدرسة للفتيات تعلم فيها هاربيت ، فتستطيع بهذه الطريقة تأمين نفقات دراستها في الجامعة .

وحينما تبلغ هاربيت الخامسة والعشرين من عمرها سنة ١٨٣٦ ، ينتقل والدها الى « اوهايو » ليصبح رئيسا لابرشية « لين » في مدينة « سينسناتي » . وتذهب معه ابنتاه كاترين وهاربيت ، وهناك تؤسسان معا مدرسة جديدة في ضاحية المدينة . وتلتقي هاربيت هناك بأستاذ جامعي لامع يدعى « كالفن ستو » فتتزوج منه .

***

في ذلك الوقت كانت قضية الرق تهز النفوس في كافة أرجاء القارة . وبما ان مدينة « سينسناتي » كانت تقع بقرب حدود « كينتاكي » - الولاية الجنوبية للعبيد - فقد اصبحت مرفأ للأفكار التحررية العاصفة وكان العبيد يهربون الى الولاية الحرة في « اوهايو » وتمد لهم يد المساعدة في كندا عن طريق رجال عرفوا بعطفهم على قضايا الحرية.

فى تلك البيوت الكريمة الواقعة فى الشمال كان العبيد يجدون الحماية فى النهار الى حين ينقلون خلال الليل الى تلك الولاية ٠

***

واضحى ساحل تلك الولاية مقرا للجدل العنيف ، ولتأييد قضـية تحرير الانسـان . ولقد ساعد الكثيرون من طلبة الولايات الشمالية على تحرير عبيدهم وعلى تأسيس مدارس للطلبة الملونين فى « سينسناتى» رغما عن نظرية العداء التى ورثها هؤلاء عن أهلهم .

وحينما حاولت الصحافة المحلية أن تلجأ الى المناداة بحل عـادل للقضية تعرضت مطابعها للكسر مرتين وقذفت الى البحيرة ، كماتعرض الكثير من بيوت الملونين للحرق وقتل البعض منهم . واضطرتهاربيت واسرتها بسبب هذا الى النوم متسلحين لحماية أنفسهم . وحذرالبحث فى هذه القضية . وكنتيجة لهذا التقييد أوشكت المدرسة على التوقف عن التدريس بعد أن هجرها أكثر أساتذتها وطلابهـا وبعد أن بذل السيد بيتشر مع ابنائه فى سبيلها أقوى الكفاح .

وفتحت هاربيت بيتها للأطفال الملونين الذين كانت تعلمهم . وحينما اعتقل واحد منهم ، تولاها أسى عميق فبادرت الى افتدائه بكل ماكانت تملك من مال ٠ حينذاك أنذرت عائلة ستو بالخطر : فهاجرت الى الشمال فى عام ١٨٥٠ ، وشرع زوج هاربيت فى التدريس فى كلية برانسويك فى ولاية مين كما اخذت هى فى الكتابة للصحف ، لتعاون على كسب العيش .

***

والآن وفى سن الاربعين ، ومع تبعات بيتية مرهقة وتربية لطفل ، كان من غير المتوقع أن تستطيع هاربيت انتاج أى أثر أدبى بارز ٠ ولكنها وهى على حساسية عميقةبالمأساة الانسانية الدامية ، وبالمعركة التىتثور وتندلع نيرانها فى الولاية ، الى ذلك الاضطهاد السافر للرقيق ، اذ أبيحت مطاردة الملونين واعادتهم ثانية الى العبودية والموت ـــ فقد كانت هاربيت اقدر من يتولى اثارة هذه المأساة ، اذ لم يكن الناس قد اثيروا أو حركوا الى الدرجة الكافية لمعارضة أو مقاومة الرق بعد . هنا ، نرى هاربيت تود من الأعماق ان لو استطاعت اثارة هذه المعانى السامية فىالنفوس، ودفعها الى تحرير أخوتها فى الانسانية من الاذلال والعبوديةوالاضطهاد

ولاح لها هذا الرجاء أو تمثل فى ذهنها فى شخصية « العم توم » بينما كانت تجلس على مائدة القربان فى كنيسة برنسويك الصغيرة فى يوم أحـد .

وعادت هاربيت الى البيت ، يتملكها ايمان جارف بتنفيذ هـذا القصد . وبدات الكتابة . كتبت بادىء ذى بدء فصلين او ثلاثة من قصة كوخ العم توم ، وقدمتها الى الدكتور «بيلى» صـــاحب جريدة الأحرار سابقا فى سينسناتى ، وزارت بوسطن ، وفى قاعات انسيليبرى لمقاومة الرق ، استعارت الكثير من المراجع لدعم كتابها بالوثائق والحقائق .. وحين كتبت القصة نفسها ملأت كل صفحة وسطر فيها بالرأفة والعاطفة .. تلك العاطفة التى انبثقت من اختياراتها فى مشكلة الرق والاضطهاد البشرى .

ونشرت هاربيت القصة ، وكان التجاوب معها فى كافة أنحاء العالم قويا عاصفا تبدى فى فيض من رسائل التشجيع والتقريظ من ملوك وأمراء وكتاب وأدباء ، فقد كتب لها « ديكنز » قائلا :

« ان كتابك لجدير بكل عقل وكل قلب» كما قرظه كنجسلى وجورج اليوت وغيرهما ، وفى السنة التالية قامت هاربيت وزوجها برحـلة الى أوربا ، فكانت تقابل فى كل مدينة تزورها بحماسة مقدسة اذ كانت جموع الشعب توقف مركبتها فى الشوارع لتحييها وتملؤها بالزهر .

وافتتح اكتتاب عام لحركة تحرير العبيد حيث قدم لها مبلغ الف جنيه استرلينى على صينية فضة ، كما دعتها احدى الدوقات الى حفل فى بيتها كان من شهوده لورد بالمرستون وماركونى وجلادستون قدمت لها خلاله سوارا ذهبيا على شكل قيد لعبد رقيق نقش على الحلقـة الأولى منه : « اننا نؤمن بأنه رمز لقيد ســـوف يتحطم عاجلا» . كما نقش على الحلقة الثانية منه تاريخ الغاء تجارة الرق فى امريكا عام ١٨٠٧ وفى بريطانيا عام ١٨٤٣ ، وعلى الثالثة : تاريخ تحرير العبيد فى مقاطعة كولمبيا الى اعلان الرئيس ابراهام لنكولن لالغاء العبودية فى الوثيقـــة الدستورية فى الولايات المتحدة ، والى الأبد سنة ١٨٣٦ .

***

وعادت هاربيت وزوجها الى امريكا من رحلتهـا فى أوربا لتكتب المذكرات الشائقة هناك وتؤلف قصصا قوية أخرى .

واستمر بيع قصة كوخ العم توم بارتفاع ، وترجم الى تسع عشرة لغة مختلفة اخرى . وكان تأثيره فى كافة انحاء العالم عظيما ، اذ حرر الكثيرون عبيدهم بعد قراءته كما ازداد بيع كتب التوراة فى فرنسا لأن الشعب هناك أحب أن يقرأ الكتاب الذى أحبه العم توم كثيرا .

واخيرا ، وبعد الحرب الأهلية مباشرة استطاعت هاريت أنتشترى بيتا بين بساتين البرتقال فى فلوريدا من النقود التى ادخرتها منالتأليف كما بنت كنيسة لزوجها ظل يعظ فيها حتى موته سنة ١٨٨٦ .

فى عيد هاريت الواحد والسبعين ، اقام ناشر قصصها حفلةكبرى على نخب مؤلفة القصة الانسانية العالمية ، دعا اليها الشعراء والفنانين والسياسيين ورجال الاصلاح . وتحت منصة فى خيمة عظيمةجلست هاريت لتصغى بتواضع الى قصائد الشعراء والخطب التى كانت تمجد كفاح امرأة واحدة رقيقة حيية ، وفى سمو ظاهر يدل على أنهـــا أتمت هدفا عظيما .

***

وطوى الموت هاريت بيتشر ستو سنة ١٨٩٦ اثر مرض عضـــال « الشلل » ودفنت فى مقبرة متصلة بالكنيسة ، بين قبر ابنهاوزوجها فى « اندوفر » وقال التاريخ :

لقد كافحت هاريت بقلم أكثر مما كافحت بسلاح ، وعاشت لترى معركتها ضد العبودية .. تنتصر ..

درس من الغــرب :

روح لا تقهــر ..
هيلــين كيــلر

« ان الد أعدائى الشفقة الذاتية والانعطاف الذاتى اى ان اشفق على نفسى – هيلين كيلر » ..

يجمع كتاب الغرب على اتخاذ حياة هيلين كيلر مثلا لحياة القوة ، والروح التى لاتقهر . حيـــاة حافلة دفعتنى لاســـتقرائها بالبحث والدراســـة .

هيلين كيلر كيف شقت طريقها فى الحياة وقد سلبت منذ طفولتها نعمة السمع والبصر والنطق وكيف انتصرت على الالم والقنوط والحظ السىء حتى قال عنها أحد اساتذتها « انها لأعظم واسعد مخلوق عرفته، وذلك للقوات الساحقة التى تغلبت عليها بصبر جميل وعزيمة لاتقهر؟»

يقول المثل الفرنسى « ان الحياة ميدان كفاح دائم » ، وهذا حق اذ اى امرىء كتب له فيها النصر والتوفيق دون أن تدميه اشواكها ؟ولكن أية صعاب مهما بلغت فلن تكون كتلك التى اعترضت هيلين كيلر ، ولعل فى سيرتها الرائعة أعظم دليل .

ولدت هيلين كيلر سنة ١٨٨٠ كأى طفل سليم ، ولكنها ماكادت توفى على العامين من عمرها حتى أصيبت باحتقان حاد فى الدماغ أتى على سمعها وبصرها ، ثم مالبث ان سلبها نعمة النطق ايضا ؟ ونظرت اليهـا أسرتها نظرة شفقة ورثاء بالغين اذ اى أمل فى الحياة لفتاة عمياء صماء بكماء ! ولكن هاهى ذى أقباس من الرحمة والنور تتراءى لها خلال تلك الظلمات فى معلمتها النابغة آن سوليفان التى بعبقريتها صاغت منهـا انسانا له كرامة الانسانية وفضائلها .

ونحن قد نكون مستمتعين بحواسنا كافة لكننا عمى فى عالم الفكر والجمال ، وصم اذ لا يصل الى سمعنا آلاف الأصوات من ذلك العالم الخفى عالم الروح والوجدان ، وبكم اذ لاتنطق شفاهنا عن آلاف الكلمات والافكار النبيلة التى يمكن ان تلهم وتنفع الأصدقاء والناس ، كماصنعت هيلين كيلر . فلا نأخذ عنها الدرس البليغ فى تحطيم الحواجز التىتحجب عنا عالم الخير والنور فنتجه مثلها لتخفيف الشقاء عن المعذبين !

وبعد ، لم يكن تعليم هيلين كيلر بالهين اليسير ذلك ان الشعور بالنقص قد جعلها شرسة مؤذية فأى طريقة تجدى اذن لتلقينها آداب السلوك وجعلها عضوا فى العالم الحى وهى التى لاتعرف شيئا من اللغة البشرية ؟!!

كان هذا من أشق السبل كما نرى ، ولكن معلمتها ذللت تلكالعثرات بحكمتها . ففى اليوم الذى وصلت فيه أعطت الفتاة دمية أثارت انتباهها وهى تتحسسها وحينئذ مست أصابعها أصابع هيلين ورسمت كلمة دمية فقلدتها الطفلة بحماسة وشيئا فشيئا استطاعت أن تجعلها تتحقق ان تلك الحركات لها معنى .. وذات يوم تعلمت كلمات جديدة اسماء الأم والأب والمعلمة . ألا ما أجمل هذه اللعبة ، ومالت اليها برغبة ومثابرة وغذت معلمتها فيها هذا الميل للمعرفة ببراعة ، ففى الربيع حينما كانت تعود الحياة للأرض وكل شىء فيها يمجد الله – على طريقته – الطير بالتغريدوالزهر بالعطر واللون والكون بالجمال ،كانت تفسر لها اسرارتلك الطبيعة الخالدة فيكون لها فى هذا نبع سرور وسعادة لاتحد فتقول :كلما ازدادت معرفتى بالأشياء شعرت بالسرور من العالم العظيم الذىيحتوينى فى جنباته . ثم فتحت لها عالما سحريا آخر هو عالم الكتب ، حينعلمتها كيف تقرأ بواسطة الحروف البارزة .. فيالدهشتها : اسماء ، آراء جديدة ، شعر ، افكار جميلة ونبيلة ، انها لن تستطيع سماعها ، بيد أنها تحسبها وتلمسها كما تلمس ثوبها الجديد يوم العيد .. وقالت لهامعلمتها ذات يوم :

« اذا كنت – أى فتاتى – لاتسمعى وترى الأشياء الجميلة فىالعالم فستعرفينها بطريقة اخرى ، اذكرى لماذا يحتاج هؤلاء الذين يبصرون ويسمعون ان يتلمسوا بطريقتهم لمعرفة اشياء جديدة كالأمل والسرور والحب والشعور فقط . دونك الحب مثلا ، فما من أحد يستطيع أنيراه او يسمعه ، أو يتذوقه أو يتنسمه أو يلمسه ، ولكنه موجود لاشك فى وجوده ، فهو مسيطر وجميل وحقيقى ولكن كيف تعرفين هذا؟ بالاحساس فقط .. وترد الفتاة « بلى يا آن اننى لاحس به يملأ كيانى كله كما أحبك أنت » .

وهكذا تتفتح روح هيلين كيلر للفهم والادراك بالتدريج حتى وقعت ذات يوم المعجزة الكبرى وذلك حين علمتها آن سوليفان النطق كانت العملية شاقة وطويلة ، وتتلخص كما يلى : تنطق المعلمة بحروف خاصة بينما تمر هيلين بأصابعها على حنجرتها وشفتيها ، وحينئذ تأخذ فى تقليدها ، وبعد جهود مضنية اتت اللحظة العظيمة حين فاهت بأول عبارة لها قائلة : الجو حار ..

واخيرا هاهى ذى الحواجز التى كانت تفصل بينها وبين العالم قد سقطت ، وحررها تعليمها الابتدائى من ذلك السجن الرهيب لتدخل مع اقرانها الى التعليم العالى وتتخرج من جامعة ريدكليف بتفوق باهر .

وتستقر هيلين بعد ذلك مع معلمتها فى مزرعة براندام لتنصرف الى الكتابة والتفكير وينبثق لها من الادب ضياء غامر يحول ظلامها الى النور وجحيمها الى نعيم كما نراها تقول : « الأدب ؟ انه جنتى ؟ » أجل انها تبتعد عن العالم ببصرها وسمعها ولكنها تقترب منه بوجدانها وبصيرتها وترى فيهما أكثر من المبصرين كما كان يقول لها الكاتب الساخر مارك توين معجبا مكبرا : « ان العالم لمليء بعيون ولكنها عمياء لاتبصر ، انها تتفرس وتحدق ولكن دون تعقل » ..

ثم يضيف : « انها وقد احست بشعور النقص كانت سعادتها بأن تبحث عن الباب خارج الظلام ليس لأجلها فحسب ، بل لبقية البشرية. أن قضيتها لقضية الأعمى يقود الأعمى ، ولتطل أيضا على رؤى جديدة فى الحياة . ولقد وجدتها أخيرا بعد ان سجلتها قصة كفاح احيطت بحدود ضيقة للغاية ، وجدت فيها خلال ذلك الكفاح الى العالم الذى وجدته الرحمة والمحبة والاحسان الالهى أو كما جاء فى قولها : « لقد وجدت الحياة أخيرا غاية فى الجمال .. »

وتهدى هيلين كيلر العمى والمبصرين على السواء ، حين تجوب القارات وتكتب وتخطب للرحمة بالمعذبين الذين سلبتهم الاقدار نعمة الابصار ولنشر فلسفة السعادة والجمال والكفاح للحياة والنور ترسم السبيل مما تقول :

« انني نشأت عمياء صماء بكماء ، ولكننى علمت نفسى أن أميز بين الأصوات والألوان واستمع للهاتف ولم اكن حزينة لهذا قط ولا واهنة العزم ، أو متشائمة والزمت نفسى بقوة الهية ، أن أكون سعيدة » وكمفكرة عالمية ، ترسم للجنس البشرى طريق الاخاء والسلام فتقول : «ان استعباد البشرية سيوضع له حد فيما اذا طبقت عليها الاشتراكية العاقلة العادلة: الغذاء للجائع ، والمأوى للشريد ، والعلم للجاهل ، والسلام بين الأمم ،

والعدالة للجميع . أن فى العالم اليوم كثير من الطيش والقلق وعدم الثقة وقليل من السرور ، فلو تنازل الجشعون عن جشعهم ، لأمكن للمعوزين أن يحيوا حياة أفضل وأنفع ٠٠ »

« هذا العالم البشرى اننى لست متفائلة فيه ، ففيه الكثير من الشر كما بى ، ولست كذلك متشائمة منه فهناك كثير من الخير فى العالم وفى الله . واننى لأعتقد انه ممكن اصلاحه ولهذا ترونني أعمل أبداً . » وهكذا تعيش هيلين بايمانها وعالمها الجميل ٠٠ وحينما كانت الظلال القائمة تحجب عنها النور كانت تمسح عبراتها بانتظار الغد الجميل المقبل وكان أقتم تلك الظلال يوم ماتت صديقتها ومرشدتها آن سوليفان سنة ١٩٣١ ولكنها طوحت تلك الأحزان لتستمر فى رسالتها تترجم للعالم بأصابعها الحساسة تهدى الضالين وتبصر فوق كل مبصر ●

شهيدة دير ياسين
حياة سليم البلبيسى
(١٩٣٠ ـ ١٩٤٨)

منذ ان اعلنت الامم المتحدة قرارها الجائر بتقسيم فلسطين ،والفتاة « حياة » معلمة القرية ، قرية دير ياسين الواقعة فى ضواحى القدس وهى تأخذ طريقها اليها كل يوم ذهابا وايابا . لاتكاد تسمع الا نداء راعدا ينطلق مرددا : فلسطين عربية ولايمكن أن تكون لليهود .

ونصحها ذووها بالتوقف عن الذهاب الى القرية ـ وهى تجازف بروحها ـ ريثما تهدأ الامور ، فلم تقبل النصح ، ورأت أن عليها لوطنها رسالة ولأهل القرية الطيبين عهدا . فلقد أخذت على عاتقها تدريب طالباتها فتيات القرية على الاسعاف الأولى وضمد الجراح ، بعد أن تدربت هى على ذلك فى القدس منذ أن أعلن قرار التقسيم ، وبثت صادق العزم فيهن للتقدم الى ساحة المعركة اذا جد الجد ، وانها سوف تكون معهن فى الطليعة . أفتتخلى عن رسالتها اذن فى الموقف الجلل ؟.

وانطلقت « حياة » ذات صباح تحت وابل من الرصاص الى القرية لتواجه غدها الرهيب . وكأن هاتفا من وراء الغيب يردد : ان المعركة الفاصلة قد غدت على الأبواب .

نشأة قاسية ..

ولدت « حياة سليم البلبيسى » عام ١٩٣٠ ، لأبوين فلسطينيين من عائلات نابلس ، هما « سليم البلبيسى » و « وسيلة القطب » . وهاجرت اسرتها الى مدينة السلط . ولكن والدها مالبث أن توفى هناك . فانتقلت الأم مع ابنتيها الصغيرتين ـ الى القدس لتعيش هناك فى كنف شقيقها

وخالة لها تدعى قدرية القطب . ولكنها تصاب فجأة بالشلل ، وتغـدو طريحة الفراش . وكان هذا كافيا لتفتح الفتاة الكبرى « حياة » عينيها على المأساة ، ولتبدو عليها منذ الصغر بوادر جد وادراك عميق لمسئوليتها واذ كان خالها يغدق على الأسرة الصغيرة الكثير من حنانه الغامر ورعايته، فقدتسنى لحياة أن تنتقل فى المدرسة من صف الى صف بتفوق وتميزالى ان انهت السنة الثانية الثانوية . وانتسبت الفتاة بعد هذا الى دارالمعلمات بالقدس . ولكنها ماتكاد تخطو فى تلك المدرسة خطواتها الأولى ، وتقبل بحماسة على المدرسة لتهيىء لأسرتها موردا ولنفسها مستقبلا ، حتىيعود القدر فيجور عليها من جديد ، ويد الموت تتخطف خالها ، وعائل أسرتها الوحيد . وتصهر المحنة الفتاة من جديد ، ولكن لتفجر فيها طاقة أخرى لتحمل الأعباء . ومن ثم نراها تتقدم للبحث عن عمل تستطيع به اعـالة امهاالعليلة وشقيقتها الصغيرة . وتجد «حياة» الفرصة الوحيدة السانحة أمامها فى وظيفة مدرسة منفردة يعرضها عليها رجال المعارف بالقدس . وكانت مدرسة اناث ، تلك القرية ، قرية دير ياسين .

وحذرها الناس من قبول المهمة ــ والمستعمرات اليهودية تحيـط بالقرية من كل جانب ــ ولكنها صممت على قبولها . ولم يمض وقتطويل حتى أصبحت « حياة » المثل الأعلى لفتيات القرية وموضع تقدير أهلهـا لاخلاصها وكفاءتها .

ولكن الأحوال مالبثت أن تغيرت حين قررت هيئة الأمم تقسيم فلسطين واخذ الجو ينـذر بأحداث خطيرة لم يكن فى الامكان أن تكون القـرية الصـغيرة عنها بمعزل .

وقع قرار التقسيم على عرب فلسطين

ويقع القرار الجائر ، قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ، وقـوع الصاعقة على عرب فلسطين ، وتميد له البلاد من أقصاها الى أقصـاها.

وتتدفق طلائعهاالثورية من القرى والجبال الىالمدن كالأمواج المتلاطمة تشق بصرخاتها واناشيدها الحماسية كبد السماء . وتشهد ساحاتها مالم تشهده منذ الفتوح العربية ، والمراة القروية تنزل الى السـاحات لترقص مع الرجل رقصات الحرب داعية الى الكفاح والاستشهاد . وفى المدن تنتظم صفوف المراة وحدة روح وهدف لكفاح عظيم جامع . فهى اما كاتبة تثيرالحميات وتشد العزائم ، أو خطيبة فىالجموع تلهب المشاعر ومنذ اللحظة الأولى تداعت المراة فى كل بلد ــ كما توافدت من القرى ــ للتدريب على الاسعاف وتضميد الجراح . وأدت الجمعيات النسـائية

آنذاك واجبها أصدق أداء ، اذ تطوعت بصفوفها للعمل والوقوف جنبا الى جنب مع الرجل فى ثورتهما المقدسة للوطن ، كما حولت مؤسساتها كافة الى مستشفيات للجرحى واعداد العدة لليوم العصيب .

ولم يكن التقسيم هو اول كارثة فلسطين، فقد كان الانتداب البريطانى قد أخذ على عاتقه وضع البلاد فى حالات سياسية واقتصادية وادارية تؤدى الى قيام هذا الوطن القومى اليهودى ، اذ كان الذى يضع القوانين للبلاد هو : « بنتويتش » ـ أحد غلاة الصهيونية ـ كما كان مدير التجارة والهاجرة والسفر من اليهود او البريطانيين . ومنذ اول عهد الانتداب بدأت عملية انتقال الأراضى من أيدى العرب الى أيدى اليهود . وفى عهد السير هربرت صموئيل ـ المندوب السامى الصهيونى ـ الذى أقطعهم ـ تنفيذا للوعد الذى قطعته بريطانيا على نفسها لليهود ، بلسان وزيرها بلفور لتهويد البلاد ـ أكثر اراضى الدولة واجودها كما حمى صناعاتهم . ومضت بريطانيا فى سياستها للقضاء على عروبة الأرض المقدسة وهى تفتح لليهود أبواب الهجرة ، وتسهل لهم شراء الأراضى ، مما سبب نزوح اهالى العشرات من القرى ، وتمنحهم امتيازات استغلال الثروة المعدنية فى البلاد .

ثورات ثمان فى ٣٠ عاما

وادرك اهل فلسطين من اول الأمر انهم فى خطر ، وغلت الثورة فى عروقهم ، وما لبثت أن اشتعلت فى ٤ أبريل ١٩٢٠ ، ثم تلتها ثورة أخرى فى ١ مارس ١٩٢١ . وتتابعت الثورات حتى بلغت الثمانى خلال ثلاثين عاما .

وكانت أشد الثورات ، ثورة ١٩٣٦ ، وهى التى اضربت فيها البلاد كلها اضرابا شاملا برا وبحرا ، وتوقفت فيها الأعمال والمدارس والمحاكم طيلة ستة شهور احتجاجا على الهجرة اليهودية . ولم يثن الشعب الفلسطينى قمع الحكومة البريطانية للثورة ونسفها لمناطق واسعة . بل كان هذا داعيا له الى القيام بالكثير من عمليات التدمير ونسف القطارات والجسور .

وتميزت الثورة الأخرى العاتية التى تلتها عام ١٩٣٧ بالمقاومة الشديدة المسلحة ، وحكموا بالاعدام على ١٤٨ من العرب لحيازتهم للأسلحة . وفى سجن عكا ، شنقت السلطات البريطانية الثائر المجاهد : القائد الشيخ فرحات السعدى ـ وهو صائم فى رمضان ـ كما نسفت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وملأت السجون بالمعتقلين ، حتى بلغ عدد من اعتقل اذ ذاك، لمدد مختلفة ، نحو خمسين الفا .

كى اجساد وخلع اظافر

وفى تلك السجون استهدف الكثيرون من المجاهدين ، لعذاب رهيب من كى للاجساد بالنار ،ومن خلع للاظافر ، وتسليط للكلاب الجائعة لنهش لحوم السجناء الأحرار . وبلغت التضحية مداها ، حين أخذ الجيش البريطانى يفتش القرى للبحث عن الثوار حتى اذا أعياه البحث ، وما من شاهد يشهد ، التجأ الى جمع الرجال فى العراء لينتقى منهم عدة شباب يطلق عليهم النار أمام آبائهم وذويهم .

ويتجاوز عدد الشهداء فى هذه الفترة ، ثلاثة آلاف ، كما يتجاوز عدد الجرحى سبعة آلاف . كل هذا ، وفلسطين ماضية فى جهادها وتضحياتها ، بل لقد نسجها العذاب صفا واحدا ، اذ حينما اخذت السلطات البريطانية تنكل بمن يلبسون الكوفية والعقال من القرويين ، لأنهم ــ كما ظنت ــ هم الذين يشعلون نار الثورات ، نادى قادة الثورة بأن على رجال البلاد جميعا أن يتخذوا هذا الزى ، وقد كان ، اذ لبس الجميع الكوفية والعقال .

لم يكن للحق لكى يتغلب على الباطل ، الا وسيلة واحدة ، وللمظلومين ليفصح عن ظلامتهم الا لسان واحد ودرب وعر يسيرون فيه . كانت هذه الوسيلة هى القوة ، هى الثورة ، هى الكفاح . وتدفقت ، بدل الكلام ، القذائف ، واشتعلت الدروب بالنار .

ثورة عام ١٩٣٨

واستمد شعب فلسطين من تاريخه ومبادئه ، من حقه ودم شهدائه وعذاب سجونه ، ايمانا وعزيمة وطريقا لخلاصه ، فاندفع ١٩٣٨ ، فى ثورة عارمة احتل بها من المدن القدس القديمة ، الخليل ، بئر السبع وطبريا بعد غزو أحيائها اليهودية ، ولم تستطع الحكومة البريطانية استعادة تلك المدن ، الا بنجدات عسكرية كبيرة .

ويستمر كفاح الشعب الفلسطينى ، ومقاومته لبريطانيا وسياستها لتهويد بلاده فى جميع الميادين السياسية الثورية ، اذ نراه يعقد المؤتمرات الوطنية فى نابلس والقدس ويافا ، لتقرير مصيره وتنظيم حركاته ، وتشكيل الوفود للدفاع عن قضيته فى الخارج ، وذلك منذ أول عهد الانتداب .

وتقع المعارك اثر التقسيم فى فلسطين ، وتبرز منها بطولات خالدة .

فنرى شابين من بيت لحم والقدس هما : انطوان داود ، وعبدالنور جنحو ينقلان المتفجرات التى نسف بهـا الثوار ، الوكالة اليهودية ، وشارع هاسوليل فى القدس ، كما نرى مجاهدا آخر يقود فرقة للتدمير هو فوزى نامق القطب .

وخلال هذا التاريخ ، تكتب قرى فلسطين ، اروع قصص الفداء ، ويشترك فى هذا النضال العظيم ، كل فتى يستطيع حمل السـلاح . وتقدم النساء للرجال حليهن ليشتروا بها السلاح ، ويرهن الثائر اغلى ما يملك ليحصل على بندقية ، يرهن بيته ، ليدفع الخطر عن وطنه .

وفى القدس ، نرى الفتى صباح الدين قحف ـ ولمـا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ـ ينسف ثلاثة منازل يهودية تحصن فى داخلها اليهود لقتال العرب ، ثم يستشهد ، وهو يشعل الفتيل لنسف الرابع .

وفى معركة الزراعة التى وقعت بين جيش الانقاذ ، وبين اليهود ، نرى بطل تلك المعركة ، الفدائى الشهيد نعيم عبد المجيد ، الذى ابلى أعظم بلاء ، وهو يرأس فرقة الفدائيين لبث الألغام وقـد زحفت الى المستعمرة ـ وعلى ظهورها صناديق الالغام ـ حتى اذا احكم وضعها مع رفقائه ، اذ ببعضها ينفجر ، فيصيب عـددا منهم . ولـكنه لم يترك مكانه ، وقد انتبه اليهود واخذوا يطلقون عليهم النار من كل جانب ، الا بعد أن حملهم واحدا واحدا الى المعسكر ، وقد استشهد فيما بعـد فى حادث مماثل .

ويخط الـكثير من القادة ـ بعد هذا ـ صفحات مجيدة فداء للوطن فيستشهد القائد حسن سـلامة ، قائد المنطقة الوسطى فى يافا ، اثر استرداده لرأس العين ، كما يجرح قائد الخليل ابراهيم أبو دية جرحا مميتا ، وأما الشاعر عبد الرحيم محمود فيحمل روحه على راحتيـه ؛ فدى لأرضه وعروبته ، وليخضب ثراها ، ويهز آفاقها بدمه ونشيده :

« سـأحملُ روحى على راحتى ... وأرمى بهـا فى مهاوى الردى
فاما حيـاة تسر الصـديـ ... ـق واما ممات يغيظ العـدى »

وعبد القادر الحسينى

وحتى الثامن من ابريل ١٩٤٨ ، والمعارك تحتدم ، والنار تشـتعل فى فلسطين من كل جانب ، وابناؤها يتسابقون الى الموت للذود عن قدس الوطن العربى ، وما جرحوا شرف امتهم ـ بعار او هزيمة ـ ، او سقطت

لهم حتى ذلك التاريخ ، راية عن قرية أو مدينة . وفى القدس ، يناضل مجاهدو المدينة وضواحيها ــ على رأسهم قائدها البطل عبد القادر الحسينى ــ نضالا جبارا . وتتدفق عليها النجدات من كل جانب . ويتبلور ايمان فلسطين هناك متجمعا فى عزائم متأججة ، ويرتفع صوت للكفاح عاليا مدويا ، وهى تحارب فى كل حى من أحياء المدينة ، تنسف الشوارع والمؤسسات اليهودية والانابيب التى تحمل الى سكانها من اليهود المياه ، وطرق المواصلات . وتتوقف اذ ذاك القوافل التى تحمل التموين ، فيرفع السكان ــ سكان اليهود فى القدس الجديدة ــ الأعلام البيضاء استعدادا للتسليم . ولكن ، هل جنت فلسطين ثمار هذا النصر الذى أوشك أن يحول مجرى تاريخها ، ويخلد قدس نضالها ؟ اللهم لا .

فى خضم هذا النضال الذى تتزلزل له راسيات الهمم ، يسقط قائد القدس عبد القادر شهيدا فى معركة القسطل ، بعد أن حمل راية الكفاح لوطنه منذ عام ١٩٣١ .

المذبحة الحمراء فى دير ياسين

ايقن اليهود ، ان قرار التقسيم ، قد زاد من موقف العرب فى فلسطين ثباتا والتهابا ، وان هذا الشعب العربى الذى دك الصعاب وخاض الأهوال ، ولوى حديد الاستعمار ، بصلابته ووحدة نضاله فى تلك الثورات العاتية التى سبقت القرار ، ولم يخضع ، أو يهزم ، لن يستطيعوا ان يكونوا له اندادا فى المعترك . وها هو ذا فى القدس والخليل ، وباب الواد ، كما فى يافا ، وسلمة ، ويازور ، وحيفا ، وعكا ، والطيرة ، وقلقيلية ، وسائر المثلث العربى ، يسدد الى مقاتلهم الضربات ويجلجل كالأعصار ليسحق كل من يغتصب وطنه .. وطنه مقر أمجاده ومستقر عظام آبائه ، وموطن ذكرياته ، وسر كيانه ووجوده ومبعث عزته.

اذن لابد من جريمة يقترفونها ليجدوا لهم مخرجا من ذلك الهلاك المرتقب ، وليخفف عنهم وطأة العرب الذين قطعوا عنهم أنابيب المياه ، وحالوا دون وصول القطارات التى كانت تحمل اليهم التموين . وكان استشهاد عبد القادر ، هو الذى تقووا به ، ثم الأسلحة التى نهبوها من المعسكر البريطانى .

واستقر رأى قادتهم على أن يكون هدف الجريمة دير ياسين – وهى من قرى القدس ، وتقع على بضعة أمتار منها الى الغرب – ويبلغ عـدد سكانها ٧٧٥ نسمة ، يحيط بها ماينوف على مئة وخمسـين ألفا من اليهود الذين يسكنون فى المستعمرات . وكان بين أهلها وبين اليهود ، عهود جرت بينهم بالهاتف عند نشوب القتال فى القدس ، أن لا يعتدى أحدهم على أحد . واطمأنت دير ياسين ، ولـكن لتستيقظ على هجوم طائرة تقذف بحممها البيوت الآمنة ، وخمس عشرة دبابة ومدافع تصليها نارا من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، كما رابطت قوة أخرى عند مداخل القرية ، لتحول دون هروب السكان .

ووقعت الواقعة حين دخل اليهود القرية ، وشرعوا يفتكون بأهلها . وارتفعت صيحات الاستغاثة من كل بيت حتى أطباق السـماء ، فلم يغثهم أحد – وكان الجيش البريطانى على مقـربة منهم – ولم يكن فى القرية سوى ٨٥ مسلحا ، أخذوا يدافعون عنها دفاع الأبطال . وشهدت تلك الأرض فى تلك الليلة الليلاء ، آيات من البطولة والفداء ، ونسـاء القرية ، يقاتلن جنبا الى جنب مع الرجال ، يعبئن القوى للجهـاد ، ويشددن العزائم . وتستشهد منهن : حلوة زيدان ، وقد نزلت الى المعركة تدافع دفاعا عظيما بالسلاح . بعد أن استشهد أمامها ابنهـا ، ثم زوجها ، كما أصـيبت رفيقتاها جميلة صلاح ، وذيبة عطية بجراح خطيرة ، وهما تقاتلان فى قلب المعركة . وكان هناك من الشـهيدات اخريات كثيرات . منهن ثلاث فى طيرة بنى صعب استشهدن الى جانب الرجال فى ساحة الشرف ، والقرية العربية الجبارة تظل صامدة حتى بعد سقوط فلسطين بعام واحد ، وهى تقاتل وتجالد وتدفع بصدورها وعزائمها مايربو علىاثنى عشرألف جندى يهودى وما تستسلم أو تخضع حتى تخضب كل شبر منها بالدماء .

حياة البلبيسى فى ساحة الشرف

فى ليلة قاتمة لفها الظلام والأسى – كما لف فلسطين بلهيب الثـأر والفجيعة – استيقظت « حياة » من نومها على أزيز الرصاص ودوى المدافع فهبت من فورها الى صندوق الاسعاف تحمله . ولم تنس أن تضع شارة الصليب الاحمر على سـاعدها ، لتستطيع التنقل بين الجرحى ، وهى تؤدى واجبها الانسانى .

وانطلقت « حياة » الى القرية ، قرية دير ياسين ، وهى تفكر فى فتيات القرية اللواتى دربتهن على الاسعاف هناك . انهن لابد استيقظن

مثلها ليؤدين رسالتهن ويضمدن الجراح ، اذ لاشك أن هناك الآن ضحايا وجراحات كثيرة ، والمعركة مستعرة اللهيب . ولم تدر ، وهى تنتقل بين الجرحى ، وتذوب المـا مع الجراح ، ماضية فى رســــالتها فى أرض العذاب ، ترد الروح لهذا بقطرة ماء ، ولذاك بمسحة ورباط ، لم تدر ان اولئك الفتيات اللواتى علمتهن الواجب كيف يقام به ، والموقف الحرج كيف يضمد له ، قد أصبحن آنذاك أشلاء متراكما بعضها على بعض فى بئر القرية . فلقد ذبح الهجانا ـ الجيش الاسرائيلى ـ بالاشـــتراك مع منظمتى شتيرن والأراغون ٢٥٠ عربيا وعربية فى هجومه على القرية ، كان منهم اثنتان وخمسون من الأمهـات والمرضعات ، وخمس وعشرون امرأة من الحوامل ، وستون امرأة أخرى وفتاة . بقروا البطون بالحراب ومزقوا فيها الأجنة ، قتلوا الأطفـال الأبرياء على مرأى من أمهـاتهم ومزقوهم اربا اربا . وقذفوا بنحو مائة وخمسين جثة مشوهة فى البئر بالقرية .

وظلت «حياة» مع المدافعين تقوم بواجبها ، بثبات واخلاص ، حتى انتهت المذبحة ، تلك التى ظلت متصلة من الفجر حتى عصر اليوم التالى، وبانتهائها تحول اليهود لاقتحام المنازل للسلب والنهب . كانت «حيـاة» عندئذ تتسلل الى خارج القرية الذبيح ، وقد ران عليها سكون الموت ، برفقة صديقة عجوز ، لتصل الى القدس عن ذلك الطريق الوحيد الوعر ولـكنها ماكادت تجتاز مواطن الخطر ، حتى طرق سمعها نداء خافت لجريح يستغيث بها .

فعادت لتضمد له جراحه ، وكان كل مالديها من أربطة وضماد قد نفد ، فخلعت غطاء رأسها وراحت تمزقه وتشد به ساق الجريح الذى كان ينزف دما .. أبصرها اليهود من بعيد تنقذ شابا عربيا كانوا قـد حسبوا انهم قضوا عليه، عندئذ سددوا نحوها نيرانهم فأصابتها رصاصة قاتلة ، فسقطت شهيدة مع الشهداء فى دير ياسين العربية .

ويخيم الظلام على القرية ـ وعلى أفقهـــا المخضب بدم الشهداء وشاح ـ ويفتح الشاب العربى الجريح عينيه بعد اغماءة طويلة ، فيرى اليهود يقطعون الفتاة العربية بعد استشهادها ، ويقهقه القدر اذ ذاك ، وهناك ضمائر تغفو ، وهاتف يهتف ، وجراح تصيح :

« سرى الموت فى الظلماء والقوم فى الـكرى

وقـــام على ســـاق ، ونحن قعـــود »

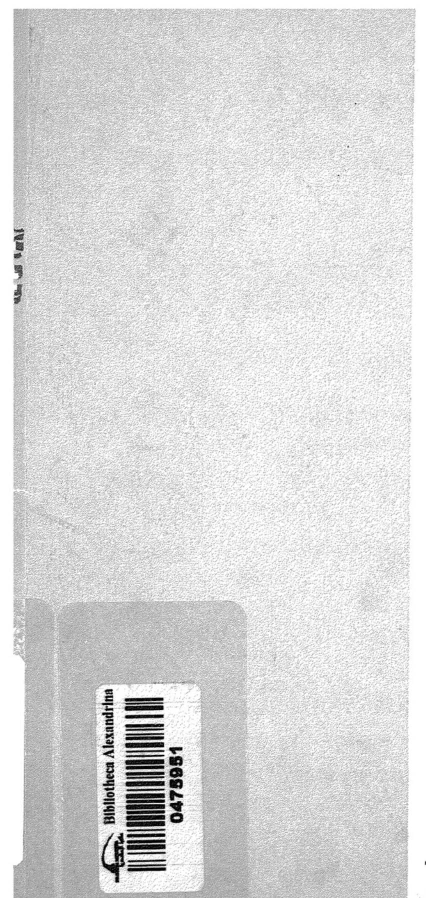
***

في الصباح البـــاكر الموافق ١٠ ابريل ١٩٤٨ ، بينما كان اليهود يحتفلون بانتهاء المجزرة الحمراء وهم يسوقون أمامهم الأسرى ممن بقي من سكان القرية العربية ، دير ياسين ، رجالا ونساء واطفالا ، ويطوفون بهم في شوارع القدس ، رافعي الأيدى ، حاسرى الرؤوس ، حفـــاة الأقدام — وعلى مشهد من السكان العرب في الطرف الآخر من القدس — مخفورين بالجنود المدججة بالسلاح من عصـــابات الهاجناة ، في ذلك الوقت ، كان يطرق باب ذوى الفتاة الشهيدة « حياة » ، ذلك الجريح الذى كان آخر ما أنقذته . جاء متحاملا لينبىء أهلها بنهايتها الاليمـة وليبكي معهم تلك الفتاة الباسلة التى عرفت كيف تموت راضية وهى في زهرة شبابها ، في الثامنة عشرة من عمرها .

« دير ياسين ماتزال على الأفـ ـــق دماء تسـيل عبر الحدود
قسما بالذرى ، وبالمسجد الأقـ ـصى وبالقدس والتراب النضيد
ما انهزمنا يوما ، ولا دب فينا خور في عراكنـــا المشـــود
قد حملنا الـكفاح رايتنا الكبـ ـرى وسرنا لمجـدنا المنشود »

أجل ، ان المعركة لم تتم ، ومازال الـكفاح لنـــا شريعة ، ومازال للوطن خلاص ، وللمشردين عودة .

فهرس



الثمن ٢٥ ص